بيان معاني الرحمة
في القرآن الكريم

دراسة موضوعية

تأليف
دكتور
محمد عبد الرحمن محمد عبد الله
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
كلية أصول الدين – القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم :-

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين . الذى فتح أمام عباده أبواب الرحمة والغفران ، وأنزل القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى الكريم المبعوث رحمة للعالمين ، ومحجة للسالكين ، وحجة على جميع المكلفين . ختم الله به رسالته ، وأيده بالخوارق المظهرة لصدقه وجعل القرآن أعظم معجزاته ، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه عدد ما خلقت ورزقت وأمت وأحييت إلى يوم تبعث من أفنيت ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن الرحمة من صفات الله سبحانه وتعالي كتبها على نفسه ووعد بها فضلاً منه وتكرماً . قال عز من قائل :﴿ قُل لِمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾{الأنعام ١٢}.

ومن أجلها أرسل الرسول ﷺ ، وفيها يتركز هدف رسالته ، ومقصد دعوته قال جل جلاله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ { الأنبياء:١٠٧}

وما من نعمة أنعم الله تعالي بها على عبادة - عامة كانت أم خاصة - إلا وهى أثر من آثار رحمته سبحانه ، فمن رحمته جل شأنه ، إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، ونصب الأدلة ، والإسلام والقرآن ، والجنة ، والرزق ، والعافية ، والتوفيق ، والإلهام بما ينفع فى الحياة وبما يضر ...

والرحمة هى السمة المميزة للمسلمين فيما بينهم قال عز من قائل : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾{ الفتح ٢٩ }.

فهم متوادون متعاطفون. يعطف كبيرهم على صغيرهم ، ويوقر صغيرهم كبيرهم ، ويواسى غنيهم فقيرهم ، ويعين قويهم ضعيفهم ، ويرشد عالمهم جاهلهم ، ويهدى حكيمهم سفيههم ، ويرى المحكوم رحمة الحاكم به ، كما يرى الأبناء رحمة الآباء ،والتلاميذ رحمة المعلمين ، والمرضى رحمة الأطباء ، وإلى غير ذلك من قطاعات المجتمع .

وما أحوجنا أن تكون المشاعر متلاقية ، والأحاسيس تنبض

بالـتعاون ، والمحبة والتساند ، والتعاطف ،والتواد فيما بيننا .

فالـرحماء مـن عباد الله ، هم موطن الأمل للناس بعد الله تعالى ، ومقعـد الـرجاء لهم ، وحيث حلو فعـندهم مرافـئ الراحة للمتعبين ، وواحة الأمن للمفزعين ، أولئك هم الذين يرحمهم الله ويعطف عليهم ، ويـسعدهم بحسن لقائه ، وينجيهم من فتنة الحياة والممات .

أخـرج الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ: " الـراحمون يرحمهم الرحمن ارحمـو من فى الأرض يرحمكم من فى السماء الرحم شجنة من الرحمن فمن وصلها وصله الله ،ومن قطعها قطعه الله".(١)

أما القاسية قلوبهم فالناس بمعزل عنهم فلا يرجوهم أحد ، ولا ينتظر منهم فضل فقد حل عليهم سخط الله ، وفـى الحديث القدسي ، يقول الله تعالى : " اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادى فانى جعلت فيهم رحمتي ، ولا تطلـبوه مـن القاسية قلوبهم فإنى جعلت فيهم سخطي " .

وحسبهم كذلك قول الرسول ﷺ : " لا تنـزع الرحمه إلا من شقى " وأى شـقى أكبر من ذلك الذى يرى اليتامى ، والمساكين ، والضعفاء ، والمرضـى ، وأصـحاب الأعـذار، تتابعهم البلايا والمحن ، وتلعب بهم المـصائب ، وتفـتك بهم الأمراض والعلـل ، ثـم لايتأثر قلبه بعاطفة الشفقة والحنو عليهم والرحمة بهم ، وإن مـا نـشاهده اليوم من آثار الحـروب والظلم الواقع على الناس فإنمـا هو نتيجة لنزع الرحمة من القلـوب وخلـو النفس من الشفقة عياذا بالله تعالى .

هذا وقد اشتمل البحث على تقديم وفيه الحديث عن تعريف الرحمة فى اللغـة والاصـطلاح ، وثبوت صفة الـرحمة لله تعالـى بالكتاب والسنة والإجمـاع ، ثم الحديث عن استعمالات الـرحمة فـى القرآن وقد جاءت على ستة عشر وجها .

الوجه الأول؛الرحمة يعنى:الإسلام .

الـوجه الثاني؛الـرحمة يعنى:الإيمان .

الوجه الثالث؛ الرحمة يعنى :الجنة.

الـوجه الرابع؛الـرحمة يعنـى: النبوة .

(١) الجامع الصحيح للترمذى : ٤/ ٣٢٣ رقم(١٩٢٤)وقال:حديث حسن صحيح.

الوجه الخامس ؛ الرحمة يعنى : سيد المرسلين محمد ﷺ .

الـوجه الـسادس؛الرحمة يعنى:القرآن

الـوجه السابع ؛ الرحمة يعنى : التوفيق والمنة.

الوجه الثامن؛الرحمة يعنى:المطر .

الـوجه التاسـع؛الرحمة يعنى:النعمة .

الـوجه العاشـر؛الرحمة يعنى: الرزق.

الـوجه الحادي عشر ؛ الرحمة يعنى : النصر والفتح .

الـوجه الثانـي عشر ؛ الرحمة يعنى : العافية .

الـوجه الـثالث عشر ؛ الرحمة يعنى : المودة .

الـوجه الـرابع عشر ؛ الرحمة يعنى : المغفرة.

الـوجه الخامس عشر ؛ الرحمة يعنى: السعة.

الـوجه السادس عشر ؛ الرحمة يعنى: العصمة.

والله تعالـى أسأل أن يجعل هذا الـبحث خالصاً لوجهه ، وأن يتقبله بفضله ، وأن أكون قد وفقت فيه ، وأن يجعل ذلك فى ميزان حسناتنا ، وأن يـتجاوز عن أخطائنا . اللهمَ يا عالم الخفيات ، ويا رفيع الدرجات ، يـا غافـر الذنب ، وقابل التوب شـديد العقاب ذى الطول لا إله إلا أنت إليك المصير . نسألك أن تذيقنا بـرد عفوك ، وحلاوة رحمتك ، يا أرحـم الراحمين . يا رب العالمين.

﴿ وَمَـا تَوْفِيقِـي إِلا بِاللَّه عَلَيْه تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

{ هـود: ٨٨}

المؤلف

د/ محمد عبد الرحمن محمد عبدالله

أستاذ التفسير

وعلوم القرآن المساعد

كلية أصول الدين – القاهرة

جامعة الأزهر

تعريف الرحمة :-

فى بيان المفهوم اللغوى لكلمة الرحمة :

قال ابن فارس : (رحم) الراء والحاء والميم أصل واحد يدل على الرقة والعطف والرأفة . يقال من ذلك رحمه يرحمه ، إذا رقّ له وتعطف عليه . والرُّحم والمرحمة والرحمة بمعنىً . والرَّحم : علاقة القرابة ثم سميت رحم الأنثى رحماً من هذا لأن منها ما يكون ما يُرحم ويُرق له من ولد ... وقد رَحُمت رَحامة ورُحمت رَحْماً . اهـ[1]

وقال ابن منظور : الرحمة : الرقة والتعطف ، والمرحمة مثله ، وقد رحمته وترحمت عليه . وتراحم القوم : رحم بعضهم بعضاً . والرحمة : المغفرة ... والرحمة : الرزق ... والرحمة فى بنى آدم عند العرب : رقة القلب وعطفه . ورحمة الله : عطفه وإحسانه ورزقه . اهـ [2]

وقال الراغب : والرحمة : رقة تقتضى الإحسان إلى المرحوم ، وقد تستعمل تارة فى الرقة المجردة وتارة فى الأحسان المجرد عن الرقة نحو : رحم الله فلاناً .

وإذا وصف بها البارى فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة ، وعلى هذا رُوى أن الرحمة من الله إنعام وإفضال ، ومن الآدميين رقة وتعطف . ولايطلق الرحمن إلاعلى الله تعالى من حيث إن معناه لايصح إلا له إذ هو الذى وسع كل شئ رحمة ، والرحيم يستعمل فى غيره وهو الذى كثرت رحمته . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ { البقرة: ١٨٢}.

وقال فى صفة النبى ﷺ : ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ { التوبة :١٢٨}

وقيل إن الله تعالى : هو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ، وذلك أن إحسانه فى الدنيا يعم المؤمنين والكافرين وفى الآخرة يختص بالمؤمنين وعلى هذا قال سبحانه : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾

(١) مقاييس اللغة لابن فارس ٢/٤٩٨ (رحم) ط مصطفى الحلبى ط الثانية سنة ١٩٧٠م

(٢) لسان العرب لابن منظور ٤/ ١٠٣:١٠٢(رحم) ط دار الحديث القاهرة.

{ الأعراف:١٥٦} تنبيها على أنها فى الدنيا عامة للمؤمنين والكافرين وفى الآخرة مختصة بالمؤمنين.اهـ[1]

وقال الألوسى رحمه الله فى تفسيره عند الكلام على معنى الرحمن الرحيم واتصافه تعالى بهما : " الرحمة فى اللغة رقة القلب ولكونها من الكيفيات التابعة للمزاج المستحيل عليه سبحانه تؤخذ باعتبارغاياتها ؛ إما على طريقة المجاز المرسل بذكر لفظ السبب وإرادة المسبب ، وإما على طريقة التمثيل بأن شبه حاله تعالى بالقياس إلى المرحومين فى إيصال الخيرإليهم بحال الملك إذا رق لهم فأصابهم بمعروفه وإنعامه. فاستعمل الكلام الموضوع للهيئة الثانية فى الأولى من غير أن يتمحل فى شئ من مفرداته ، وإما على طريقة الاستعارة المصرحة بأن يشبه الإحسان على ما اختاره القاضى أبوبكر أو إرادته على ما اختاره الأشعرى بالرحمة بجامع ترتب الانتفاع على كل ويستعارله الرحمة ويشتق منها الرحمن الرحيم على حد – الحال ناطقة بكذا –

وإما على طريقة الاستعارة المكنية التخييلية بأن يشبه معنى الضمير فيهما العائد إليه تعالى بملك رقَ على رعيته تشبيهاً مضمراً فى النفس ويحذف المشبه به ويثبت له شئ من لوازمه وهو الرحمة .

وقيل الرحمة فى ذلك حقيقة شرعية وأن الرحمن أبلغ من الرحيم لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى فتؤخذ تارة باعتبار الكمية وأخرى باعتبار الكيفية فعلى الأول قيل رحمن الدنيا لأنه يعم المؤمن والكافر ورحيم الآخرة لأنه يخص المؤمن ، وعلى الثانى قيل رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا لأن النعم الأخروية كلها جسام وأما النعم الدنيوية فجليلة وحقيرة ". اهـ [2]

أما فى الاصطلاح :[3]

فالرحمة صفة تقتضى إيصال المنافع إلى العبد ، وإن كرهتها نفسه ، وشقت عليها ، فهذه هى الرحمة الحقيقية . فأرحم الناس بك من أوصل إليك مصالحك ودفع المضار عنك ولو شق عليك فى ذلك.

(١) المفردات للراغب الأصفهانى ص ١٩٢:١٩١ (رحم) ط مصطفى الحلبى سنة١٩٦١م

(٢) روح المعانى للعلامة الألوسى٥٩/١ ط داراحياء التراث العربى بيروت.

(٣) من كلام ابن القيم رحمه الله.

فمن رحمة الأب بولده : أن يكرهه على التأدب بالعلم والعمل ، ويشق عليه فى ذلك بالضرب وغيره ، ويمنعه شهواته التى تعود بضرره ، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلة رحمته به ، وإن ظن أنه يرحمه ، ويرفهه ويريحه ، فهذه رحمة مقرونة بجهل كرحمة بعض الأمهات

ولهذا كان من تمام رحمة أرحم الراحمين : تسليط أنواع البلاء على العبد ، فإنه أعلم بمصلحته فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته من رحمته به،ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه بابتلائه ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه ...

فمن رحمته سبحانه بعباده : ابتلاؤهم بالأوامر والنواهى رحمة وحمية ، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به ، فهو الغنى الحميد ، ولا بخلا منه عليهم بما نهاهم عنه ، فهو الجواد الكريم .

ومن رحمته : أن نغص عليهم الدنيا وكدرها لئلا يسكنوا إليها ، ولا يطمئنوا إليها ، ويرغبوا فى النعيم المقيم فى داره وجواره ، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان ، فمنعهم ليعطيهم ، وابتلاهم ليعافيهم ، وأماتهم ليحييهم .

ومن رحمته بهم : أن حذرهم نفسه ، لئلا يغتروا به ، فيعاملوه بما لا تحسن معاملته به كما قال تعالى:﴿ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾{ آل عمران:٣٠}

قال غير واحد من السلف : من رأفته سبحانه بالعباد أن حذرهم نفسه لئلا يغتروا به . اهـ[١]

وعرفها النيسابورى فى تفسيره فقال رحمه الله : الرحمة هى ترك عقوبة من يستحقها ، أو إرادة الخير لأهله . اهـ[٢]

ويقول الأستاذ مصطفى المراغى : الرحمة معنى يقوم بالقلب ، يبعث صاحبه على الإحسان إلى سواه ، ويراد منها فى جانب المولى عز اسمه:أثرها وهو الإحسان.اهـ[٣]

ويقول الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة : قد يكون من العسير التوصل إلى تعريف دقيق للرحمة لأن شأن الرحمة كشأن معظم العواطف والانفعالات ، إنما تدرك وتعرف بظواهرها ، لا بحقيقة تكوينها . ولكن باستطاعتنا أن

---

(١) إغاثة اللهفان :٢/٥٤٤:٥٤٥ . بتصرف يسير . تحقيق مجدى فتحى السيد ط دار الحديث القاهرة

(٢)غرائب القرآن ورغائب الفرقان:١/٧٥

(٣) تفسير المراغى : ١/٢٨ .

نقرب للتصور فهم حقيقة الرحمة ، وذلك بأن نقول : الرحمة رقة فى القلب يلامسها الألم حينما تدرك الحواس أو يتصورالفكر وجود الألم عند شخص آخر ، أو يلامسها السرور حينما تدرك الحواس أو يتصور الفكر وجود المسرة عند شخص آخر . اهـ[١]

وبعد هذه النقول والتعريفات يمكن أن نخرج بتعريفين للرحمة:-

التعريف الأول بالنسبة لكونها مضافة إلى الله تعالى :

رحمة الله سبحانه : صفة أزلية قديمة قائمة بذاته تعالى تليق بجلاله وعظمته ، من غير تحريف ولا تكييف ، ومن غير تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل ، ولا تدرك بذاتها وإنما تدرك بآثارها .

التعريف الثانى للرحمة بالنسبة للمخلوق:

هى رقة يجدها المخلوق فى قلبه تحمله على العطف والشفقة والإحسان إلى من سواه .

ثبوت صفة الرحمة لله تعالى :-

الرحمة صفة من صفات الله سبحانه ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع قال عز من قائل :

﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾{ الأنعام : ٥٤}

وقال جل جلاله:﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ { الأنعام : ١٣٣}

إلى غير ذلك من النصوص الدالة على سعة رحمة الله سبحانه وتعالى.

وأما من السنة النبوية المطهرة فقد روى الإمام مسلم وغيره من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :" إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحوش على ولدها وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عبادة يوم القيامة "

وفى رواية: " جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً فمن ذلك الجزء يتراحم

---

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها :٢/٣ . ط دار القلم بيروت ط الأولى سنة١٩٧٩.

الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه "(١)

وقد أجمع سلف هذه الأمة على وصف الله تعالى بأنه "رحيم" وعلى أن من صفاته " الرحمة "

والواجب فى نصوص الصفات – عند أهل السنة والجماعة – إجراؤها على ظاهرها مع اعتقاد معناها الظاهر حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته ، لأن قاعدتهم الأساسية فى الصفات أنهم يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه فى كتابه ، ووصفه به رسوله ﷺ ، من غير تحريف ولا تكييف ، ومن غير تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل ، واقفون على حد قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٢).

هذا وقد ورد ذكر كلمة (الرحمة) بالقرآن الكريم فى تسعة وسبعين موضعا موزعة بين السور المكية والسور المدنية . والمتأمل فى كتاب " المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم " يجد مادة (رح م) بكل مشتقاتها قد وردت فى القرآن الكريم إحدى وأربعون وثلاثمائة مرة . (٣)

وذلك يدل دلالة قاطعة على عظيم سعة رحمة أرحم الراحمين سبحانه وتعالى بعباده. وفى الوقت نفسه على المسلم ألا يغترّ بسعة رحمة الله سبحانه فيعصى اتكالاً على ذلك ، بل يجب عليه أن يتذكر قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ { الأعراف:٥٦ }

وقوله عز شأنه : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ { الأعراف:١٥٦ }

فرحمته سبحانه قريب لكن من المحسنين فقط ، وهو يكتبها لكن للمتقين .

* * *

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ك التوبة ب سعة رحمة الله رقم(٢٧٥٢) .

(٢) الشورى: ١١ ، وانظر هامش الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد للإمام البيهقى ص٤٢ تعليق فريح بن صالح البهلال ط رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء بالرياض ط الأولى سنة ١٤١٨ هـ ١٩٩٧م .

(٣) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبد الباقى ص ٣٠٤:٣٠٩ مادة(ر ح م)ط دار الفكر للطباعة والنشر ط الثانية سنة ١٤٠١ هـ ١٩٨١م .

*استعمالات كلمة (**الرحمة**) فى القرآن الكريم:*

عند البحث والتدبر فى مكتبة التفسير وعلوم القرآن نجد العلماء الذين كتبوا فى مفردات القرآن الكريم ، منهم من خص الوجوه والنظائر بالتصنيف .

قال الإمام السيوطى رحمه الله : النوع التاسع والثلاثون فى معرفة الوجوه والنظائر صنف فيها قديماً مقاتل بن سليمان ، ومن المتأخرين ابن الجوزى ، وابن الدامغانى ، وأبو الحسين محمد بن عبد الصمد المصرى ، وابن فارس وآخرون(١)

فالوجوه : اللفظ المشترك الذى يستعمل فى عدة معان كلفظ الأمة . والنظائر: كالألفاظ المتواطئة وقيل : النظائر فى اللفظ والوجوه فى المعانى.اهـ (٢)

وأياما كان – فالمقصود بيانه هنا : اللفظ الواحد يستعمل فى معانٍ عديدة ، تجمع هذه المعانى علاقة عامة .

وفى هذه الفقرة تفسير كلمة (الرحمة) والوجوه التى تطلق عليها فى القرآن الكريم ، فقد جمعها أبى عبد الله الحسين بن محمد الدامغانى (ت : ٤٧٨) وأرجعها إلى أربعة عشر وجهاً :

الإسلام ، الإيمان ، الجنة ، النبوة ، القرآن ، المطر ، الرزق ، النعمة ، العافية ، النصر ، المودة ، التوفيق ، عيسى عليه السلام ، الرسول محمد ﷺ . (٣)

أما الإمام السيوطى (ت: ٩١١) فقد أرجعها إلى أربعة عشر وجهاً كذلك إلا أنه ذكر : السعة ، والعصمة ، والمغفرة ، بدل النعمة ، وعيسى عليه السلام ، والرسول محمد ﷺ . (٤)

إلا أن الإمام أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى (ت: ٥٩٧) قال : وذكر أهل التفسير أن الرحمة فى القرآن على ستة عشر وجهاً .

---

(١) منهم الحكيم الترمذى (ت: ٢٨٥) فى كتابة : تحصيل نظائر القرآن ، ومنهم أبو العباس المبرد (ت: ٢٨٥) فى : ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد ، ومنهم ابن العماد (ت : ٨٨٧) فى كتابة :كشف السرائر فى معنى الوجوه والأشباه والنظائر ، وغيرهم

(٢) الإتقان فى علوم القرآن : ٢٨٣/٢

(٣) الوجوه والنظائر للدامغانى : ٣٥٧/١ ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة سنة ١٩٩٢م

(٤) الإتقان فى علوم القرآن: ٢٨٥/٢ .

اهـ (1) وأضاف إلى ما تقدم من الوجوه : المنة ، والرقة .

أمـا الفيروز آبادى (ت : ٨١٧) فقد توسع فى العدد إلى ما هو أكثر مـن ذلك فقال : وقد ورد الرحمة فى القرآن على عشرين وجهاً اهـ(2)

وذكر من هذه الوجوه : الكتاب المنـزل على موسى بن عمران ، والثـناء علـى إبراهيم والولدان . وإجابـة دعوة ذكريا مبتهلاً إلى الله المنان وفتح أبواب الروح والريحان والنجاة من عذاب النيران.

قلـت : والعدد الذى تطمئن إلية النفس هو ما ذهب إليه أهل التفسير علـى ماقاله ابن الجوزى وهو أن الـرحمة فى القرآن على ستة عشر وجهـاً حـيث إنه العدد الوسط بين الأربعـة عشر والعشرين وما فوق ذلـك مـن العـدد فإن مرجعه إلى اختلاف الألفاظ فحسب .

---

(1) نزهة الأعين النواظر فى علم الوجوه والنظائـر :ص ٣٣١ تحقيق محمد عبد الكـريم ط مؤسسة الرسالة ط الثالثة سنة ١٩٨٧م

(2) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز : ٣/ ٥٥ تحقيق محمد على النجار ط المكتبة العلمية بيروت

وبعـــد *: فإليك ذكر الوجوه التـي وردت عليها كلمة (الرحمة) والأمثلة فى بيانها :*

الـوجه الأول :الـرحمة يعنى : الإسلام؛ومنه قوله تعال﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾{الإنسان: ٣١} يعنـي : فـى دينه الإسلام .نظيرها قوله سبحانه :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾{ الشورى: ٨} يعنى : فى دينه الإسلام . وكقوله عز وجل ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ { الفتح :٢٥} يعنى: فى ديـنه الإسـلام .إلـى غير ذلك من الآيات .

الـوجه الثاني؛الـرحمة يعنـى: الإيمـان ؛ ومنه قوله سبحانه على لـسان نوح عليه السلام : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ { هود: ٢٨} .

وقـوله جـل شـأنه على لسان صالح عليه السلام : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾{هـود: ٦٣} يعنى بالرحمة : الإيمان .

الوجه الثالث : الرحمة يعنى : الجنة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾{ البقرة : ٢١٨ } يعنى : جنته .

وقـوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾{ آل عمران : ١٠٧} .

يعنـى : ففـي : جنته . وقوله سبحانه : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ ﴾ { النساء : ١٧٥ } يعنـى : فى الجنة . إلى غير ذلك من الآيات .

الوجه الرابع ؛ الرحمة يعنى: النـبوة ؛ ومـنه قـوله تعالـى : ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ { ص : ٩ } يعنى : مفاتيح النبوة . وقوله سبحانه : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ { الزخرف : ٣٢ } يعنى : النبوة .

الوجه الخامس ؛ الرحمة يعنى : سيد المرسلين محمداً ﷺ ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾{ الأنبياء:١٠٧}.

الوجه السادس ؛ الرحمة يعنى : القـرآن؛ومنه قـوله تعالـى:﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ { يونس:٥٨} يعنى : القرآن .

الـوجه السابع ؛ الرحمة يعنى: التوفيق والمنة ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ { القصص : ٤٦ } .

الـوجه الثامن ؛ الرحمة يعنى : المطر ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾{ الأعراف : ٥٧} يعنى : المطر .

الـوجه التاسع ؛ الرحمة يعنى : الـنعمة ؛ ومـنه قـوله سـبحانه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾{الكهف: ٦٥}يعنى:نعمة من عندنا.

وقوله جل وعز : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ { مريم : ٢ } أى : نعمة ربك .

الوجه العاشر ؛ الرحمة يعنى : الـرزق؛ومنه قوله تعالى:﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ ﴾{ الإسراء: ١٠٠} يعنى:رزق ربى .

وقوله سبحانه : ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ { فاطر : ٢} يعنى : من رزق .

وقوله عز شأنه﴿ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ {الإسراء : ٢٨ } يعني : الرزق .

الوجه الحادي عشر ؛ الرحمة يعني : النصر والفتح ؛ ومنه قوله تعالى :﴿ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ {الأحزاب:١٧} يعني:النصر والفتح.

الوجه الثاني عشر ؛ الرحمة يعني : العافية ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ يعني:بعافية﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾{ الزمر : ٣٨ } يعني : عافيته .

الوجه الثالث عشر ؛ الرحمة يعني : المودة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾{الفتح:٢٩}يعني:متوادين .

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ { الحديد : ٢٧ } يعني : مودة .

الوجه الرابع عشر ؛ الرحمة يعني : المغفرة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾{الأنعام:١٢}.

وقوله سبحانه :﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾{الزمر: ٥٣}.

الوجه الخامس عشر ؛ الرحمة يعني : السعة ؛ ومنه قوله ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ { البقرة : ١٧٨ }

الوجه السادس عشر ؛ الرحمة يعني : العصمة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾{هود: ٤٣}.

وقوله سبحانه : ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ﴾ { يوسف : ٥٣ }.

والعلاقة العامة والجامعة بين كل هذه الوجوه:إيصال الخير للخلق [1]

وإليك بيان تلك الوجوه بالشرح والتفصيل .

الوجه الأول ؛ الرحمة يعني : الإسلام

(١) انظر الإتقان فى علوم القرآن للسيوطي ٢٥٨/٢ . والوجوه والنظائر للدامغانى ٣٥٧/١:٣٦١ . ونزهة الأعين النواظر لابن الجوى :ص ٣٣١:٣٣٤ . وبصائر ذوى التمييز للفيروز آبادى٣/ ٥٣:٥٨ . والأصلان فى علوم القرآن أد/ محمد عبد المنعم القيعى ص٣٣٦:٣٣٧ .

الإسلام بالمعنى العام : هو التعبد لله بما شرعه من العبادات التى جاءت بها رسله ، منذ أن تعبد الله تعالى عباده بشرعه إلى أن تقوم الساعة ، فيشمل ما جاء به نوح عليه السلام وإبراهيم عليه السلام وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام كما ذكر الله تعالى ذلك فى آيات كثيرة تدل على أن الشرائع كلها إسلام لله عز وجل .

ولكنه بالمعنى الخاص : يختص بما بعث به النبى ﷺ ، لأن ما بعث به ﷺ نسخ جميع الأديان السابقة ، فصار من اتبعه مسلم ، ومن خالفه ليس بمسلم ؛ لأنه لم يستسلم لله تعالى الإستسلام المطلق بل استسلم لهواه قال تعالى﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾{ آل عمران : ٨٥} .

قال الراغب الأصفهانى : " والإسلام الدخول فى السلم : وفى الشرع على ضربين أحدهما : دون الإيمان وهو الاعتراف باللسان وبه يحقن الدم حصل معه الاعتقاد أو لم يحصل وإياه قصد بقوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ { الحجرات : ١٤ } .

والثانى : فوق الإيمان وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب ووفاء بالفعل واستسلام لله فى جميع ما قضى وقدر " . اهـ [1]

إن دين الإسلام هو الرسالة الأخيرة ، وجرى قدر الله أن يجعل منهاجه هو المنهاج الباقى إلى آخر الخليقة منهاجاً شاملاً كاملاً يلبى كل طاقات البشر واستعداداتهم ، وجعل طبيعة هذا الدين الانطلاق بالحياة إلى الأمام : نمواً وتكاثراً ، ورفعة وتطهراً ، فى آن واحد .

فلم يعطل طاقة بانية ، ولم يكبت استعداداً نافعاً ، بل نشط الطاقات وأيقظ الاستعدادات ، وفى الوقت ذاته حافظ على توازن حركة الاندفاع إلى الأمام مع حركة الارتفاع إلى الأفق الكريم الذى يهيئ الأرواح فى الدنيا لمستوى نعيم الآخرة ، ويعدّ المخلوق الفاني فى الأرض للحياة الباقية فى دار الخلود ، وعندما جرى قدر الله أن يجعل طبيعة هذر الدين هكذا جرى كذلك باختيار رسوله ﷺ واختيار معتنقيه ، والله سبحانه يهدى من يشاء ويضل من يشاء فمن يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له .

(١) المفردات فى غريب القرآن : ص ٢٤٠ (سلم) .

قـال عزمن قائل : ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِـرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّـهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِـيمًا ۝ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ { الإنسان: ٢٩، ٣١}

الشاهد فى الآيات قوله: ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ يعنى : فى دينه الإسلام . (١)

والمعنى : ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ﴾ يعنى : إن هذه السورة وأمثالها – يا محمد – تذكرة وعظة﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ أى طريقاً يتوسل به إليه ، وذلك بالإيمان والطاعة له سبحانه واتباع رسوله ﷺ ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أى لا يقدر أحد أن يهدى نفسه ولا يدخل فى الإيمان ولا يجرّ لنفسه نفعا ، فالأمر إليه عز وجل ، ومشيئته نافذة ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أى عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له ويقيض له أسبابها ، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ أى يدخل سبحانه فى رحمته من يشاء أن يدخله فيها وهو الذى علم فيه الخير حيث يوفقه لما يؤدى إلى دخول الجنة من الإيمان والطاعة ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ أى : لأنفسهم وهم الذين علم فيهم الشر﴿ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾متناهيا فى الإيلام . (٢)

من هنا كانت مهمة الرسول ﷺ محصورة ومقصورة على البلاغ والإنذار ، بل وجميع الرسل كذلك ، فلا يقدر أى رسول على هداية أحد ، ولو كان من أحب الناس إليه ، فإن ذلك أمر غير مقدور للخلق قال تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ۝ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ {الشورى: ٧، ٨ }

الشاهد فى الآيتان قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾يعنى:فى دينه الإسلام. (٣)

(١) الوجوه والنظائر الدامغانى: ٣٥٧/١.

(٢) انظر روح المعانى ١٦٨/٢٩ وتفسير ابن كثير ١١٤/٤ وفتح القدير ٤٤١/٥

(٣) الوجوه والنظائر الدامغانى: ٣٥٧/١.

والمعنى : مثل ذلك الإيحاء البليغ البديع أوحينا إليك قرآناً عربيا بلسان قومك ، واضحا جليا بينا أوحيناه إليك لتنذر أم القرى وهى مكة ومن حولها من سائر البلاد شرقا وغربا ، وتخوفهم بعذاب شديد ، وتنذر الناس جميعا بيوم الجمع وهو يوم القيامة ، وتخبرهم أنه لاشك فى وقوعه وأنه كائن لا محالة ، وأن الخلق ينقسمون فيه إلي فريقين : فريق فى الجنة ، وهم الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، وفريق فى السعير ، وهم أصناف الكفرة المكذبين ، وهذا حكم الله وقضاؤه ، فليس فى قدرة مخلوق أن يغيره ، ولو كان نبيا مرسلاً ، وهذا يؤيد قوله تعالى: ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾{ الشورى : ٦ } فلست عليهم رقيبا ولا حفيظا ، ولا يجب عليك أن تحملهم على الإيمان فإن هذا أمره إلى الله ، ولو شاء لجعلهم أمة واحدة على الهدى ، لأنه القادر الذى لا يمتنع عليه شئ ، ولكن ترك للخلق حريتهم ، وكلفهم وبني أمرهم على ما يختارون ليدخل ويكرم من يشاء من خواص خلقه بالإسلام ، وأما الظالمون الكافرون الذين لا يصلحون لصالح فإنهم محرومون من الرحمة ، وما لهم من دون الله من ولى يتولاهم ، فيحصل لهم المحبوب ، ولا نصير يدفع عنهم المكروه . (١)

ونظير هاتان الآيتان قوله سبحانه وتعالى : ﴿ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾{ الفتح : ٢٥ } يعنى: فى دينه الإسلام . (٢)

إن أعداء الإسلام لا يحبون الخير للمسلمين بل هم كارهون حاسدون إياهم على كل ما أعطاهم الله سبحانه وتعالى من فضله الواسع الغزير قال تعالى : ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾{ البقرة: ١٠٥ }.

الشاهد فى الآية الكريمة:﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ يعنى : بدينه الإسلام . (٣)

وإضافة إلى ما تقدم من عدم محبتهم الخير للمسلمين فإنهم كذلك قبحهم الله تعالى يستخدمون كل وسائل الكيد والمكر للنيل من هذه العقيدة الغراء والتشكيك فيها والتوهين من عراها وصد الناس عنها وذلك للغاية الثابتة الدفينة عندهم .

(١) الوجوه والنظائر الدامغانى: ٣٥٧/١.

(٢)الوجوه والنظائر الدامغانى: ٣٥٧/١ .

(٣) الوجوه والنظائر الدامغانى: ٣٥٧/١.

قال تعالى : ﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ { آل عمران : ٦٩،٧٤}

الشاهد فى الآيات قوله تعالى : ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ يعنى : بدينه الإسلام .[1]

سبب النزول :

روى ابن اسحاق عن ابن عباس ﷺ قال : " قال عبد الله بن الصيف ، وعدى بن زيد ، والحارث بن عوف ، بعضهم لبعض تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ، ونكفر به عشية حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما نصنع فيرجعون عن دينهم ، فأنزل الله فيهم : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾إلى قوله : ﴿ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .[2]

والمعنى : تمنت وأحبت جماعة من أهل الكتاب لو يصدونكم عن دينكم ويخرجونكم من شرعكم بشتى الأساليب وكل الطرق ، وبذلوا لردتكم عن دينكم كل مرتخ وغال ، وفى الواقع ما يضلون إلا أنفسهم إذ قد شغلوها بما لايجدى بل بما يضر ويلهى عن النظر فيما ينفع ، وما يشعرون أن وبال الإضلال يعود عليهم لأن العذاب يضاعف لهم بسبب ضلالهم وتمنى إضلال المسلمين وما يقدرون على ذلك إنما يضلون أمثالهم وأشياعهم .

يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله التى تتلى عليكم من آيات القرآن وأنتم تعلمون ما يدل على صحتها ووجوب الإقرار بها من التوراة والإنجيل وتشهدون بصدق رسالة محمد ﷺ يا أهل الكتاب لما تخلطون الحق بالباطل وتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، وتخلطون كلام الله المنزل بكلامكم

(١) الوجوه والنظائر الدامغانى : ٣٥٧/١

(٢) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطي :ص ٦٢ ط دار المعرفة بيروت ط الأولى سنة ١٩٩٧م .

المخترع الباطل وتكتمون نبوة محمد ﷺ وما وجدتموه فى كتبكم من نعته والبشارة به وأنتم تعلمون أنه حق.

وقلت طائفة من أهل الكتاب فيما بينهم أظهروا الإيمان بما أنزل على المسلمين فى أول النهار واكفروا به آخره لعل المسلمين يقولون ما رجعوا وهم أهل كتاب وعلم إلا لأمر قد تبين لهم فيرجعون برجوعكم ، ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الرسالة والنبوة إلا لأهل دينكم دون غيرهم لئلا يزداد المسلمون ثباتاً على الدين والمشركون دخولاً فيه ، ولا تؤمنوا لغير أتباعكم لأن المسلمين يحاجونكم عند ربكم يوم القيامة ويغلبونكم عند الله بالحجة .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ ﴾ اعتراض على معنى : ليس إظهاركم أو إخفاؤكم له دخل فى الهداية بل الهداية من الله والتوفيق ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده ، والله واسع الرحمة عليم بمصالح العباد .

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾

قال الحسن : هى النبوة ، وقال ابن جريج : الإسلام والقرآن ، وقال ابن عباس : هو كثرة الذكر لله تعالى . والله ذو الفضل العظيم .[1]

ألا فينبغى على المؤمنين أن يأخذوا حذرهم ، وينبغى عليهم كذلك أن يدركوا حقيقة حالهم ، وحال أعدائهم ، والخطر المحدق بهم فتعاليم القرآن ترشد وتبصر كل جماعة مسلمة في كل مكان وزمان بطبيعة أعدائها ، وهم هم مشركين ، وملحدين ، وأهل كتاب من الصهيونية العالمية والصليبية العالمية والشيوعية ، وتبصرها بطبيعة العقبات ، والأفخاذ المرصودة فى طريقها ، وطبيعة الآلام والتضحيات والأذى والابتلاء.

وآخر هذه العقبات والأفخاذ وليست الأخيرة حرب العراق(سنة: ٢٠٠٣م) والذى أعلن فيها رئيس أكبر دولة إمبريالية فى العالم أنها حرب صليبية قاتلهم الله أنى يؤفكون.

الوجه الثاني:الرحمة يعنى:الإيمان

إن الإيمان بالله جلّ جلاله ، لهو كبرى المنن التى ينعم الله بها عبد من عباده فى الأرض . إنه أكبر من منّة الوجود الذى يمنحه سبحانه وتعالى ابتداءً لهذا العبد ، وسائر ما

(١) انظر روح المعانى للألوسى :٣/ ١٩٩: ٢٠٢ .وتفسير النسفى:١/١٦٤:١٦٣

يتعلق بالوجود من آلاء الرزق والصحة والمتاع .و.و.و لذلك يتمنى الكافر من شدة هول ما يلقى يوم القيامة أن لو كان جماداً أو حيواناً غير مكلف .

﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا﴾{ النبأ ٤٠}في الدنيا فلم أخلق ولم أكلف أو ليتني كنت ترابا في هذا اليوم فلم أبعث ، وقيل يحشر الله الحيوان غير مكلف حتى يقتص للجماء من القرناء ثم يرده ترابا فيود الكافر حاله .[١]فقوله هذا يدل على غاية الخيبة ونهاية التحسر.[٢]

والإيمان – كما يقول الراغب – يستعمل تارة اسماً للشريعة التي جاء بها النبي محمد ﷺ وعلى ذلك قوله تعالى :﴿ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون﴾{المائدة: ٦٩} ويوصف به كل من دخل في شريعته مقرا بالله وبنبوته ، قيل وعلى هذا قال تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾{ يوسف : ١٠٦ } .

وتارة يستعمل على سبيل المدح ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق وذلك باجتماع ثلاثة أشياء : تحقيق بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بحسب ذلك بالجوارح ... وجعل النبي ﷺ أصل الإيمان ستة أشياء في خبر جبريل حيث سأله فقال ما الإيمان ، والخبر معروف .اهـ [٣]

إن أول درجات الإيمان : الإيمان بالله وإفراده – سبحانه وتعالى – بالألوهية والربوبية والعبادة ، وهو الذي جاء به كل الرسل قال تعالى : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾{الأنبياء: ٢٥ }

وقال جل شأنه عن أول رسله إلى الأرض:﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين۝أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم۝فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين۝قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾{ هود: ٢٥، ٢٨ } .

---

(١) تفسير النسفي : ٤/٣٢٨ .
(٢) روح المعاني : ٣٠/٢٢
(٣) المفردات في غريب القرآن : ص٢٦ ((٢) (أمن) .

الشاهد في الآيات الكريمة: ﴿ وآتاني رحمة من عنده ﴾ يعني بالرحمة : الإيمان .[١]

قال الإمام الشوكاني قوله تعالى : ﴿ وآتاني رحمة من عنده ﴾ هي النبوة ، وقيل الرحمة المعجزة ، والبينة النبوة . قيل : ويجوز أن تكون الرحمة هي البينة نفسها ، والأولى تفسير الرحمة بغير ما فسرت به البينة ... وقيل : الرحمة هي على الخلق ، وقيل : هي الهداية إلى معرفة البرهان ، وقيل : الإيمان . اهـ [٢]

قلت : ولا مانع من إرادة كل هذه المعاني وعلى رأسها الرسالة والمن عليه بالهداية عليه السلام.

ونظير هذه الآيات قوله تعالى عن نبي الله صالح عليه السلام : ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب۝قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب۝قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير﴾{هود ٦١ : ٦٣}

الشاهد في الآيات الكريمة قوله تعالى : ﴿ وآتاني منه رحمة ﴾ يعني بالرحمة : الإيمان .[٣]

والمعنى : وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً من أوسطهم نسباً وأكرمهم خلقاً وأرجحهم عقلاً قال : يا قوم اعبدوا الله وحدوه وأخلصوا له الذين ما لكم من إله خلقكم ورزقكم غيره ، هو الذي ابتدأ خلقكم من الأرض بقدرته ، لأن كل بني آدم من صلب آدم ، وهو مخلوق من الأرض ، وجعلكم عمارها وسكانها ، فاستغفروا ربكم مما صدر منكم من الكفر والمعاصي ثم توبوا إليه وارجعوا إلى عبادته واعملوا صالحاً من

---

(١) الوجوه والنظائر : ١/٣٦١ . والإتقان : ١/٢٨٥
(٢) فتح القدير : ٢/٦١١ :٦١٢
(٣) الوجوه والنظائر : ١/٣٦١ . والإتقان : ١/٢٨٥

الأعمـال إن ربـي قريب داني الرحمة مجيب لمن دعاه.

وما كان منهم إلا أن ردوا دعوته البليغة الوجيزة الملأى إرشاداً وهدياً بردٍّ ملئ بالضلال والمكابرة وضعف الحجـة .قالوا يا صالح قد كنت فـينا بيننا مرجواً قبل هذا للسيادة والمشاورة فى الأمور ، وهذا شهادة منهم لنبيهم صالح ، أنه ما زال معروفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم وأنه من خيار قومه. ولكنه لما جاءهم بهذا الأمر الذى لا يوافق أهواءهم الفاسدة ، قالوا هذه المقالة التى مضمونها ، أنك كنت كاملاً ، والآن أخلفت ظننا فيك ، وصرت بحالة لا يرجى منك خير . تنهانا عن عبادة ما كان يعبد آباؤنا إننا لفى شك مما تدعونا إليه من عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان موقع فى الريب . ووصف الشك بذلك تأكيد كقولهم : جدّ جده .

قال يا قوم : أخبرونى ماذا أفعل ؟ إن كنت على حجة ظاهرة وبرهان صحيح من ربى أنّ ما أدعوكم إليه هو من عند الله لا من عندي ، ومنّ علىّ برسالته ، ووحيه ، وهدايته أفأتابعكم على ما أنتم عليه وما تدعوننى اليه ؟ فمن ينصرنى ويمنعنى من عذاب الله إن عصيته فى تبليغ رسالته ، ومراقبتكم وفترت عما يجب علىّ من البلاغ والتقوى فما تزيدوننى بتثبيطكم إياى ، وحرصى على رجائكم وخوفي من سوء ظنكم غير إيقاعى فى الهلاك والخسران.(١)

إن أول ما يصنعه الإيمان في الإنسان حين تستقر حقيقته في قلبه ، هو سعة تصوره لهذا الوجود وصحة تصوره للقيم والأشياء والأشخاص والأحداث من حوله ، وأنسه بكل ما في الوجود حوله وأنسه بالله خالقه وخالق هذا الوجود ، وشعوره بقيمته وكرامته ، وإحساسه بأنه يملك أن يقوم بدور مرموق يرضي عنه الله تبارك وتعالي ، ويحقق الخير لهذا الوجود كله بكل ما فيه وكل من فيه ، وهو مطمئن في رحلته علي هذا الكوكب حتي يلقي الله

الوجه الثالث:الرحمة يعنى:الجنة

قال الراغب : الجنة كل بستان ذى شجر يستر بأشجاره الأرض قال

(١) انظر التحرير والتنوير لابن عاشور ٦/١١٣ : ١١٤ . والتفسير الواضح د/ محمد محمود حجازي

عز وجل : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ { سبأ : ١٥ } وسميت الجنة إما تشبيهاً بالجنة فى الأرض وإن كان بينهما بون ، وإما لستره نعمها عنا المشار إليها بقوله تعالى :﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾{السجدة : ١٧} (١)

وقال العلامة الألوسي : الجنة فى الأصل المرة من الجنّ – بالفتح- مصدر جنّه إذا ستره ، ومدار التركيب على الستر ثم سمى بها البستان الذى سترت أشجاره أرضه أو كل أرض فيها شجر ونخل ... وصارت حقيقة شرعية في دار الثواب إذ فيها من النعيم " ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" مما هو مغيب الآن عنا .اهـ (٢)

والعمل على طلب الجنة والنجاة من النار مقصود الشارع الحكيم من الأمة ليكونا دائماً على ذكر منهم فلا ينسونهما . ولأن الإيمان بهما شرط فى النجاة ، والعمل على حصول الجنة ، والنجاة من النار : هو محض الإيمان .

وقد حض النبي ﷺ عليها أصحابه وأمته . فوصفها وجلاها لهم ليخطبوها وقال : " ألا مشمر للجنة ؟ فإنها ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز ، وزوجة حسناء ، وفاكهة نضيجة ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ... الحديث فقال الصحابة : يا رسول الله نحن المشمرون لها فقال : قولوا إن شاء الله"

والقرآن والسنة مملوءان من الثناء على عباد الله وأوليائه بسؤال الجنة ورجائها ، والاستعاذة من النار والخوف منها ...

والله سبحانه يحب من عباده أن يسألوه جنته ويستعيذوا به من ناره . فإنه يحب أن يُسأ ل . ومن لم يسأله يغضب عليه. وأعظم ما سأل " الجنة " وأعظم ما استعيذ به " من النّار " (٣)

والجنة : رحمة الله سبحانه يرحم بها من يشاء من عباده . روى البخاري ومسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : " قال النبي ﷺ تحاجت الجنة و النار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : ما لى

(١) المفردات فى غريب القرآن:ص٩٨(جن).

(٢) روح المعانى : ١/ ٢٠١ : ٢٠٢ . والحديث فى صحيح مسلم ك الجنة وصفة نعيمها وأهلها .

(٣) انظر مدارج السالكين لابن القيم : ٢/ ٧٨ فما بعدها . تحقيق حامد الفقى ط سنة ١٩٥٦م .

لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم قال الله تبارك وتعالى للجنة : أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى ، وقال للنار: إنما أنت عذاب أعذب بك من أشاء من عبادى ولكل واحدة منهما ملؤها ، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول قط قط فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحداً . وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً " (١) .

وأهل رحمة الله جلَّ جلاله هم الذين آمنوا بالله ورسله ، وفارقوا الأهل والأوطان لإعلاء كلمة الله ، ونصرة دينه ، وجاهدوا فى الله حق جهاده . قال عز من قائل:﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾{البقرة:٢١٨}.

الشاهد فى الآية الكريمة قوله تعالى :﴿ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ﴾ يعنى : جنته .(٢)

(١) فتح البارى ك التفسير ب (وتقول هل من مزيد) وصحيح مسلم بشرح النووى ك الجنة وصفة نعيمها .

(٢) الوجوه والنظائر الدامغانى : ٣٥٨/١ والوجوه والنظائر لابن الجوزى ص٣٣١

سبب النزول:

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى فى الكبير والبيهقى فى سننه عن جندب بن عبدالله أن رسول الله ﷺ بعث رهطاً وبعث عليهم عبدالله بن جحش فلقوا ابن الحضرمى فقتلوه ، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى . فقال المشركون للمسلين : قتلتم فى الشهر الحرام فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾الآية{البقرة:٢١٧}.

قال ابن حجر : قوله:(ضعفاء الناس وسقطهم) بفتحتين أى المحتقرون بينهم الساقطون من أعينهم ، هذا بالنسبة إلى ما عند الأكثر من الناس ، وبالنسبة إلى ما عند الله هم عظماء رفعاء الدرجات ، لكنهم بالنسبة إلى ما عند أنفسهم لعظمة الله عندهم وخضوعهم له فى غاية التواضع لله والذلة فى عباده ، فوصفهم بالضعف والسقط بهذا المعنى صحيح أو المراد بالحصر فى قول الجنة : (إلا ضعفاء الناس) الأغلب.اهـ فتح البارى ٨/ ٧٦٨

فقال بعضهم : إن لم يكونوا أصابوا وزراً ليس لهم أجر، فأنزل الله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

والمعنى : إن المؤمنين الذين فارقوا أوطانهم وهاجروا مع رسول الله ﷺ ، وبذلوا جهدهم في مقاومة الكفار أعداء الله لإعلاء دينه ، الذين يرجون ويؤملون ويطمعون تعلق رحمة الله سبحانه بهم أو ثوابه غلي أعمالهم ، وهم جديرون بهذا الفضل والعطاء — إن شاء الله — لأنهم استفرغوا ما في وسعهم ، وبذلوا غاية جهدهم في مرضاة الله ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ تذييل لما تقدم وتأكيد له .

قال الإمام الشوكاني : وإنما قال سبحانه ﴿ يَرْجُونَ﴾ بعد تلك الأوصاف المادحة التي وصفهم بها لأنه لا يعلم أحد في هذه الدنيا أنه صائر إلي الجنة ولو بلغ في طاعة الله كل مبلغ . اهـ (٢) .

والمؤمنون مأمورون بالاعتصام بحبل الله والتمسك بدينه وعدم التفرق والاختلاف ، كما أنهم مكلفون بتكوين جماعة خاصة للدعوة إلي الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(١) لباب النقول [illegible]يوطي ص٤٤ وانظر أسباب النز[illegible] ص ٦١ - ٦٢

(٢) فتح [illegible] ٢٧٠

قال عزَّ من قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾{آل عمران:١٠٢: ١٠٧}

الشاهد فى الآيات الكريمة قوله سبحانه : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ يعنى : ففى جنته . (٣)

(٣) الوجوه والنظائر الدامغانى: ٣٥٨/١ والوجوه والنظائر لابن الجوزى ص٣٣١.

قال الألوسي قوله : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ أى : الجنة فهو من التعبير بالحال عن المحل والظرفية حقيقية ، وقد يراد بها الثواب فالظرفية حينئذ مجازية كما يقال : فى نعيم دائم وعيش رغد ، وفيه إشارة إلى كثرته وشموله للمذكورين شمول الظرف ، ولا يجوز أن يراد بالرحمة ما هو صفة له تعالى إذ لا يصح فيها الظرفية ويدل على ما ذكر مقابلتها بالعذاب ومقارنتها للخلود في قوله تعالى : ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وإنما عبر عن ذلك بالرحمة إشعاراً بأن المؤمن وإن استغرق عمره فى طاعة الله فإنه لا ينال ما ينال إلا برحمته تعالى ولهذا ورد فى الخبر " لن يدخل أحدكم الجنة عمله فقيل له : حتى أنت يا رسول الله ؟ فقال : حتى أنا إلا أن يتغمدنى الله تعالى برحمته " . اهـ [١]

ونظير هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾{ النساء: ١٧٤ ، ١٧٥} .

الشاهد فى الآيتان قوله سبحانه : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ ﴾ يعنى: فى الجنة . [٢]

قال العلامة الألوسي : قوله تعالي : ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ أى ثواب عظيم قدره بإزاء إيمانهم وعلمهم رحمة منه سبحانه لا قضاءاً لحق واجب ، وعن ابن عباس رضي الله عنه أن المراد بالرحمة الجنة . اهـ[٣]

والمعنى : أيها الناس : قد جائكم برهان واضح ، وحجة قاطعة ، يبين لكم حقيقة الإيمان بالله وهو رسول الله ﷺ يبهر المنكر بالإعجاز ، وأنزلنا إليكم مع هذا البرهان نوراً مبيناً هو القرآن الكريم يستضاء به فى ظلمات الحيرة اشتمل على علوم الأولين والآخرين ، والأخبار الصادقة النافعة ، والأمر بكل عدل

---

(١) روح المعانى . ٤/ ٢٦ .

(٢) الوجوه والنظائر الدامغانى: ١/ ٣٥٨ . والوجوه والنظائر لابن الجوزى : ص ٣٣١ : ٣٣٢ .

(٣) روح المعانى : ٦/ ٤٣ . وانظر تفسير النسفى : ٢٦٧/١

وإحسان وخير ، والنهى عن كل ظلم وشر .

ولكن انقسم الناس – بحسب الإيمان بالقرآن والانتفاع به– إلي قسمين :

فأما الذين آمنوا بالله حسبما يوجبه البرهان الذى جاءهم " وَاعْتَصَمُواْ بِهِ " أى عصموا به سبحانه أنفسهم مما يرديها من زيغ الشيطان وغيره بأن لجأوا إليه ، واعتمدوا عليه ، وتبرؤا من حولهم وقوتهم ، واستعانوا بربهم فسيدخلهم فى رحمة منه يرحمهم بها وهى الجنة " وَفَضْلٍ " أى إحسان لا يقادر قدره زائد على ذلك ويهديهم إلى صراطه المستقيم .

ومن لم يؤمن بالله ، ويعتصم به ويتمسك بكتابه ، منعهم من رحمته ، وحرمهم من فضله وخلى بينهم وبين أنفسهم فلم يهتدوا بل ضلوا ضلالا مبينا ، عقوبة لهم على تركهم الإيمان ، فحصلت لهم الخيبة والحرمان . نسأله تعالى العفو والعافية والمعافاة الدائمة . [١]

ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ۝ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾{ الجاثية ٢٧: ٣١ }.

الشاهد فى الآيات قوله: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ يعنى : جنته . [٢]

قال أبو السعود : وقوله : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أى : فى جنته . إهـ [٤] .

والمعنى : يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض والمتصرف فيهما وحده لا يشاركه أحد من عباده فى جميع الأوقات ، وأنه يوم تقوم الساعة ، ويجمع الخلائق لموقف القيامة يخسر المبطلون المكذبون الكافرون بما أنزله الله على رسله

---

(١) انظر المصدر السابق :٦/٤٢:٤٣ . وتفسير السعدي : ص١٨٠ .

(٢) الوجوه والنظائر للدامغانى: ٣٥٨/١.

(٣) تفسير أبى السعود : ٧٥/٨ . وانظر تفسير النسفي: ١٣٨/٤.

من الآيات والدلائل الواضحات منازلهم فى جنات النعيم ليتمتع بها أصحابها المستحقون لها من المؤمنين ، ويصرون هم إلى النار وبئس المصير .

ونرى يا من يتأتى منه الرؤية كل أمة من هول يوم القيامة وشدته باركة على ركبها خوفاً وذعراً وانتظاراً لحكم الملك الديان . كل أمة تدعى إلى صحيفة أعمالها ، ويقال لهم : اليوم تجزون ما كنتم تعملون من خير وشر ، هذا كتابنا يشهد عليكم بما عملتم من غير زيادة ، ولا نقص إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم ، وتثبتها عليكم حسنة كانت أو سيئة .

فأما الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة الخالصة الموافقة للشرع فيدخلهم ربهم فى رحمته وهى الجنة كما ثبت فى الصحيح أن الله تعالى قال للجنة : أنت رحمتى أرحم بك من أشاء .

﴿ ذَالِكَ ﴾ أى : الذى ذكر من الإدخال فى رحمته تعالى هو الفوز المبين الظاهر كونه فوزا لافوز وراءه .

وأما الذين كفروا فيقال لهم تقريعاً وتوبيخاً : أما قرئت عليكم آيات الله تعالى فاستكبرتم عن اتباعها ، وأعرضتم عن سماعها ، وكنتم قوما مجرمين فى أفعالكم مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب؟.(1)

وهؤلاء الكفرة جمعوا مع كفرهم بآيات الله كفرهم بالمعاد أيضا ونتيجة ذلك أنه لاحظ لهم ، ولا نصيب فى رحمة الله . بل لهم العذاب الموجع الشديد فى الدنيا والآخرة .قال جل وعز:﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ۞ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾{العنكبوت ٢١: ٢٣}.

الشاهد فى الآيات الكريمة قوله سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾ يعنى : جنتى .(2)

قال النسفى : قوله﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ بدلائله على

(1) انظر تفسير ابن كثير : ٤/١٣٦ : ١٣٧ .

(2) الوجوه والنظائر للدامغانى : ١/٣٥٨ . الوجوه والنظائر لابن الجوزى ص٣٣٢

وحدانيته وكتبه ومعجزاته﴿وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾ جنتي.اهـ(1)

الوجه الرابع : الرحمة يعنى : النبوة

النبوة منزلتها عظيمة ورفيعة لا يصل إليها إلا المصطفون الأخيار المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية .

قال الراغب : والنُّبوةُ سفارةٌ بين الله وبين ذوى العقول من عباده لإزاحة علتهم فى أمر معادهم ومعاشهم .

والنبي لكونه مُنَبِّئاً بما تسكن إليه العقول الذكية ، وهو يصح أن يكون فعيلا بمعنى فاعل لقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾{الحجر: ٤٩} وقوله: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ { آل عمران ١٥ } وأن يكون بمعنى المفعول لقوله ﴿ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ { التحريم : ٣}...

وسمى النبي نبيا لرفعة محله عن سائر الناس المدلول عليه بقوله تعالى:﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ {مريم: ٥٧}(2)

والله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته ، ومَن يكون أميناً عليها ، ويقوم بأعبائها . إلا أن الأكابر من المجرمين قاموا بردّ الحق الذى جاءت به الرسل حسداً منهم وبغيا .قال جلّ وعزّ :﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۞ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾{الأنعام١٢٣، ١٢٤}

ولا شك أن التكذيب بالنبوات من الكفر المعلوم الموجب للعذاب الأكبر ، وليس لمنكري النبوات من الشبه ما يعارض دلائل ثبوتها ، ولا ما ينتهض لإثارة الشكوك في هذا المقام البيّن .(3)

(1) تفسير النسفي : ٣/٢٥٤

(2) المفردات في غريب القرآن : ص ٤٨٢ (نبأ- نبي) .

(3) انظر إيثار الحق على الخلق لابن الوزير : ص ٦٥ ط دار الكتب العلمية بيروت ط الثانية سنة ١٩٨٧ ٢٥٤

بل إن إنكار رسالة النبي ﷺ طعن في الرب تبارك وتعالى ونسبته إلي الظلم والسفه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، بل جحد للرب بالكلية وإنكار[1]

قال عز شأنه : ﴿ وَعَجِبُوا أن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۝ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ۝ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ۝ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ۝ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ۝ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴾ { ص ٤ : ١١ }.

الشاهد في الآيات قوله تعالي : ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ يعني:مفاتيح النبوة.[2]

قال الإمام الشوكاني قوله تعالي :﴿ أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ﴾ أي مفاتيح نعم ربك وهي النبوة وما دونها من النعم حتى يعطوها من شاؤوا ، فما لهم ولإنكار ما تفضل الله به علي هذا النبي واختاره له واصطفاه لرسالته.اهـ [3]

إن الذي يملك الرحمة وخزائنها العزيز الغالب القاهر الكثير المواهب المعطي بغير حساب المصيب بها مواقعها الذي يقسمها علي ما تقتضيه حكمته .

ونظير هذه الآيات والتي ينكر فيها الكفار النبوة للرسول ﷺ قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ۝ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الدمشقي : ص١٥٣ تحقيق عبدالمحسن التركي ط مؤسسة الرسالة

(٢) الوجوه والنظائر للدامغاني:١/ ٣٥٩.

(٣) فتح القدير للشوكاني : ٤ / ٥٢٢

بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ {الزخرف٢٦: ٣٢ } .

الشاهد فى الآيات قوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ يعنى : النبوة .[1]

قال أبو السعود : قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ إنكار فيه تجهيل لهم وتعجيب من تحكمهم والمراد بالرحمة النبوة.اهـ[2]

وقال الشوكانى قوله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ يعنى النبوة أو ما هو أعم منها والاستفهام للإنكار . اهـ [3]

سبب النزول :

قال السيوطى : أخرج ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس قال : لما بعث الله محمداً رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكر ذلك منهم ، فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فأنزل الله : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ﴾ الآية{ يونس: ٢}وأنزل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً ﴾الآية { الأنبياء : ٧} ، فلما كرر الله عليهم الحجج قالوا : وإذا كان بشراً فغير محمد كان أحق بالرسالة: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ يقولون : أشرف من محمد ، يعنون الوليد بن المغيرة من مكة ، ومسعود بن عمرو الثقفى من الطائف فأنزل الله رداً عليهم: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾. اهـ[4]

ففى هذه الجملة الكريمة يردّ الله عز وجلّ على كل من اعترض فى جعل النبوة فى رسول الله ﷺ أهم الخزّان لرحمة الله ، وبيدهم تدبيرها ، فيعطون النبوة والرسالة من يشاؤون ويمنعونها ممن يشاؤون . ليس الأمر مردوداً إليهم ٠ بل إلى الله عز وجلّ ، وهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالاته ، فإنه لا ينزلها

---

(١)الوجوه والنظائر للدامغاني: ١/ ٣٥٩.

(٢) تفسير أبى السعود : ٨/٤٦ . وانظر تفسير النسفي: ١١٧/٤ ٠

(٣) فتح القدير : ٦٨٥/٤

(٤) لباب النقول للسيوطي ص٢٦١،١٦٦ وانظر أسباب النزول للواحدى ص٢١٦

لا على ازكي الخلق قلبا ونفسا ، شرفهم بيتا ، وأطهرهم أصلا .

والله تعالى جلت قدرته إنما اقام حجة على خلقه بإرسال الرسل وبتبليغ الشرائع على ألسنتهم الشريفة الصادقة قال عزّ من قائل : (رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً) { النساء : ١٦٥ } .

أى وأرسلنا رسلاً مبشرين من آمن وأطاع بالجنة والثواب ، ومنذرين من كفر وعصى بالنار والعقاب ، ارسلنا رسلنا لئلا يكون للناس على الله حجة ومعذرة يعتذرون بها قائلين :(لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً) فيبين لنا شرائعك ، ويعلمنا ما لم نكن نعلم من أحكامك ، وذلك لقصور القوى البشرية عن إدراك كل جزئيات الخير والشر.

قال تعالى : (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى) { طه : ١٣٤ }

وقال : (وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) { القصص :٤٧ }

وكان الله (عَزِيزاً) لا يغلب في أمر يريده (حَكِيماً) فى جميع أفعاله ، ومن قضية ذلك قطع الحجة بإرسال الرسل وتنوع الوحى إليهم والإعجاز .[1]

حاجة الناس إلى النبوات

إن من كمال عزة الله سبحانه وتعالى ، وحكمته ، وقدرته أن أرسل إلى الناس الرسل ، وأنزل عليهم الكتب تفضلاً منه ، وإحساناً حيث كانوا مضطرين إلى الأنبياء أعظم ضرورة تقدر فأزال هذا الاضطرار فلله الحمد والمنة في الأولى والآخرة .

قال ابن القيم رحمه الله فى مفتاح دار السعادة : إنه لولا النبوات لم يكن فى العلم علم نافع البتة ، ولا عمل صالح ، ولا صلاح فى معيشة ، ولا قوام لمملكة ، ولكان الناس بمنزلة البهائم ، والسباع العادية ، والكلاب الضارية التى يعدو بعضها على بعض ، وكل

(١) انظر روح المعانى : ٦/١٨-١٩

خير فى العالم فمن آثار النبوة ، وكل شر وقع فى العالم أو سيقع فبسبب خفاء آثار النبوة ودروسها .

فالعالم جسد روحه النبوة ولا قيام للجسد بدون روحه ، ولهذا إذا انكسفت شمس النبوة من العالم ، ولم يبق فى الأرض شئ من آثارها البتة انشقت سماؤه ، وانتثرت كواكبه ، وكورت شمسه ، وخسف قمره ، ونسفت جباله وزلزلت أرضه ، وأهلك من عليها فلا قيام للعالم إلا بآثار النبوة .

ولهذا كان كل موضع ظهرت فيه آثار النبوة فأهله أحسن حالاً ، وأصلح بالاً من الموضع الذى يخفى فيه آثارها ؛ وبالجملة فحاجة العالم إلى النبوة أعظم من حاجتهم إلى نور الشمس ، وأعظم من حاجتهم إلى الماء ، والهواء الذى لا حياة لهم بدونه . اهـ [1]

الوجه الخامس ؛ الرحمة يعني سيد المرسلين محمداً ﷺ

إن ممن اصطفاهم الله تعالى من أنبيائه ورسله خاتم الأنبياء محمد ﷺ فلقد فطره جلّ شأنه على الرحمة ، وجعلها خلقاً ملازماً له ، وصفةً بارزة ودائمة لم تفارقه فى لحظة من اللحظات فكانت طبيعته وسجيته ، تظهر فى معاملاته مع الأصدقاء والأعداء ومع كافة البشر على حد سواء بل أن رحمته ﷺ لتتسع حتى تشمل العالم بأسره من إنس وجان وطير وحيوان وغير ذلك من خلق الله تعالى لأنه نبى الرحمة وبعث رحمة.

روى الإمام مسلم وغيره من حديث أبى موسى الأشعرى قال : كان رسول الله ﷺ يسمى لنا نفسه أسماء فقال : " أنا أحمد ، والمقفى ، والحاشر ، ونبي التوبة ، ونبي الرحمة ".[2]

وروى أيضاً من حديث أبى هريرة قال : قيل يا رسول الله ادع على المشركين قال : " إنى لم أبعث لعاناً ، وإنما بعثت رحمة" .[3]

ويصف القرآن الكريم النبي ﷺ بالرأفة الواسعة ، والرحمة الهائلة التى تحيط بالمؤمنين قال عزّ من قائل : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم : ٢/ ١٦٧ وانظر المصدر السابق : ١٧/ ١٠٥

(٢) صحيح مسلم : ٤/١٨٢٩ رقم (٢٣٥٥) والترمذى في الجامع الصحيح ك الدعوات

(٣) صحيح مسلم: ٤/٢٠٠٧رقم(٢٥٩٩)

مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾{ التوبة : ١٢٨ }.

ففي الآية الكريمة يمتن الله تعالى على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذى من جنسهم يعرفون حاله ، ويتمكنون من الأخذ عنه ، ولا يأنفون عن الانقياد له وهو ﷺ في غاية النصح لهم والسعي فى مصالحهم ، ويشق عليه الأمر، الذى يشق عليكم ويعنتكم ، ويحب لكم الخير ويسعي جهده فى إيصاله لكم ويحرص على هدايتكم للإيمان وصرفكم عن النيران بالمؤمنين شديد الرأفة والرحمة ، أرحم بهم من والديهم ، وكيف لا يكون كذلك وكل تعاليمه ، ونصائحه ﷺ تهدى إلى الخير ، وترنوا إلى الإصلاح ، والرشاد للأمة الإسلامية فى العاجل والآجل . (١)

وقال سبحانه : ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ ﴾{التوبة:٦١}

أى : هو ﷺ رحمة للمؤمنين حيث استنقذهم من الكفر إلى الإيمان ، ويشفع لهم فى الآخرة بإيمانهم فى الدنيا ، ولأنهم كانوا به يهتدون ، وبأخلاقه يقتدون. (٢)

أما غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة بل ردوها وبدلوا نعمة الله كفراً فخسروا دنياهم وأخراهم .

إن إرسال الرسل وأنزال الكتب رحمة من الله ليهلك من هلك عن بينة ويحي من يحى عن بينة ، ولقد أثني الله تبارك وتعالي علي نبيه الكريم محمد ﷺ في كتابه مؤكداً ومقرراً شمول رحمته للعالمين ، ومبيناً هدف رسالته ، ومقصد دعوته ، وذلك في قوله جلّ جلاله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ { الأنبياء : ١٠٧ }.

قال العلامة الألوسي قوله تعالي : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ استثناء من أعم العلل أى : وما أرسلناك بما ذكر – من الشرائع والأحكام وغير ذلك مما هو مناط لسعادة الدارين – لعلة من العلل إلا لترحم العالمين بإرسالك أو

(١) انظر تفسير السعدى : ص٣١٣

(٢) انظر تفسير النسفي : ٢/ ١٣٣

من أعم الاحوال أى : وما أرسلناك فى حال من الاحوال الا حال كونك رحمة او ذا رحمه او راحما لهم ببيان ما أرسلت به ، والظاهر ان المراد بالعالمين ما يشمل الكفار ، ووجه ذلك عليه أنه ﷺ أرسل بما هو سبب لسعادة الدارين ، ومصلحة النشأتين الا أن الكافر فوت على نفسه الانتفاع بذلك ، وأعرض لفساد استعداده عما هنالك ، فلا يضر ذلك فى كونه ﷺ أرسل رحمة بالنسبة كما لا يضرَ فى كون العين العذبة مثلا نافعة عدم انتفاع الكسلان بها لكسله ... وقال بعضهم : إن الرحمة فى حق الكفار أمنهم ببعثته ﷺ من الخسف والمسخ والقذف والاستئصال ، وأخرج ذلك الطبراني والبيهقى وجماعة عن ابن عباس . اهـ (١)

حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾(٢)

ومن الآيات الدالة على عموم رحمته ﷺ قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ { القصص : ٤٦}

والمعنى : وما كنت يا محمد بجانب الجبل المسمى بالطور إذ نادينا موسى وقلنا له : خذ الكتاب أى : التوراة بقوة ، وما كنت معه حتى تشاهد ما حصل له ثم تخبر الناس به ، ولكن أرسلناك رحمة من ربك للعلمين ، ولتنذر قوما هم العرب ، ما أتاهم من نذير قبلك رجاء أن يتذكروا ويؤمنوا بالله العزيز الحميد.(٣)

وبعد فإذا تأكد بالدليل من الكتاب والسنة أنه ﷺ بعث رحمة للعالمين فمن الأجدر بنا أن نشير إلى بعض الجوانب التى نتعرف من خلالها على رحمة الرسول ﷺ وذلك فيما يلى :

رحمة النبي ﷺ بأمته :

لقد كان ﷺ عظيم الشفقة بالمؤمنين ، مثال التواضع ، والرفق بهم ليّن الجانب لهم ، وكان بحق المثل الأعلي في التواضع ، ولين الجانب ، وخفض الجناح ، وذلك

(١) روح المعاني: ١٧/ ١٠٤: ١٠٥

(٢) تفسير أبي السعود : ٦ / ٨٩ والآية من سورة الانفال : ٣٣

(٣) انظر تفسير النسفي : ٣ / ٢٣٨ . والتفسير الواضح : ٢-/ ٨٣٥

مصدقاً لقوله سبحانه وتعالي له ﷺ : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[الشعراء: ٢١٥].

ومن عظيم شفقة النبي ﷺ علي أمته ، والاعتناء بمصالحهم ، والاحتياط لهم ، والرغبة في كل ما ينفعهم ، والمبالغة في تحذيرهم ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال :

قال رسول الله ﷺ :" إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه ،فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه".

قال الإمام النووي رحمه الله معلقا علي هذا الحديث الشريف : " ومقصود الحديث أنه ﷺ شبه تساقط الجاهلين ، والمخالفين بمعاصيهم ، وشهواتهم في نار الآخرة ، وحرصهم علي الوقوع في ذلك ، مع منعه إياهم ، وقبضه علي مواضع المنع منهم ، بتساقط الفراش في نار الدنيا لهواه ، وضعف تمييزه ، وكلاهما حريص علي هلاك نفسه ساع في ذلك لجهله " . اهـ (١)

(١) صحيح مسلم بشرح النووي : ك الفضائل ١٥ / ٤٤٨ : ٤٤٩رقم(٢٢٨٤)

فلقد كان ﷺ يعلم الجاهل ويرشد الضال ويحنو علي الصغير ويعني بالفقير ويزور المريض ويواسي المنكوب ويشهد جنازة الميت من المؤمنين ، حتي إنه ﷺ يحب أن يعمل العمل فيخشي أن يفرض علي الأمة فيشق عليهم فيتركه وهو يحب عمله رحمة بالمؤمنين وتخفيفاً عليهم وكان يأمر من يصلي بالمؤمنين بمراعاة أحوالهم ، فقال ﷺ : " إذا صلي أحدكم للناس فليخفف فإن منهم الضعيف والسقيم والكبير وإذا صلي أحدكم لنفسه فليطول ما شاء " .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كان الرسول ﷺ يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا . إلي غير ذلك من الآيات والأحاديث والآثار الدالة علي عظيم شفقة الرسول ﷺ ورحمته بالأمة .

رحمة النبي ﷺ بالصبيان والعيال

لقد كان من كريم خلقه ﷺ رحمته بالعيال والصبيان يقبلهم ، ويضمهم إليه بل وإذا سمع بكاء الصبي يتجاوز في صلاته . وإلي غير ذلك .

روي مسلم وغيره عن أبي هريرة أن الأقرع بن حابس أبصر النبي ﷺ يقبل الحسن ، فقال : إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم ، فقال رسول الله ﷺ : " إنه من لا يرحم لا يُرحم " .

قال الإمام النووى قوله ﷺ : إنه من لا يرحم لا يُرحم " وفى رواية : " من لا يرحم الناس لا يرحمه الله"قال العلماء : هذا عام يتناول رحمة الأطفال وغيرهم.اهـ (١)

ويمكن أن نستخلص من هذين الحديثين وغيرهما فكرتين أساسيتين :

الأولى : عناية الإسلام بالصغار ، والتوجيه لإعطائهم ما يحتاجون إليه فى فطرتهم من عطف وحنان وذلك لا يكون إلا بالتحلى بخلق الرحمة . فتقبيل الصغار، وضمهم والحنوّ عليهم يمنحهم الغذاء النفسي إضافة إلى الغذاء المادى من الطعام والشراب ، وحاجتهم إلى الحب والحنان من أهم الحاجات النفسية

(١) المصدر السابق : ك الفضائل ١٥/ ٤٧١ . وصحيح البخاري الأدب ب رحمة الولد وتقبيله ٤/ ٥١

لان فى عدم إشباع هذه الحاجة يؤدى إلى انعدام الأمن وعدم الثقة بالنفس ، فيصعب على الأطفال التكيف مع الآخرين ويصابون بالقلق والانطواء والتوتر ، بل يعد الحرمان من الحب أهم أسباب الإصابة بمرض الاكتئاب فى المستقبل .

لذلك علمنا الرسول ﷺ بتوجيهاته القولية والعملية ما ينبغى لنا أن نمنحه أطفالنا من عطف وحنان وقبلات ، وما ينبغى أن نشعر به تجاههم من رحمة .

الثانية : بيان سنة من السنن الإلهية الثابتة ، وهذه السنة قد كشف عنها قول الرسول ﷺ : " من لا يرحم لا يرحم " وقوله : " من لا يرحم الناس لا يرحمه الله " .

وهذه السنة هى جزئية من جزئيات قاعدة : الجزاء من جنس العمل .

فمن جفت الرحمة فى قلبه ، فصار يعامل الناس بالقسوة ، عامله الله بمثل عمله ، وجازاه بمثل صنيعه . أما من يعامل بالرحمة والإحسان والعطف والحنان ، فإن الله الرحيم الرحمن يكافئه بالرحمة

والإحسان ، ويضاعف له المثوبة ويزيده من فضله . (١)

رحمة النبي ﷺ بأعدائه

لم يكن ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ولا لعاناً ولا منتقماً لنفسه ، روى مسلم عن عائشة زوج النبى ﷺ أنها قالت :" ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه . وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله عز وجل". (٢)

ولقد كان ﷺ حليماً رحيماً حتى بالأعداء الذين آذوه أشد الإيذاء وحسبك فى ذلك ما يلى :

١- ما فعله مع أهل الطائف حينما ذهب إليهم يعرض دعوته عليهم ويرجو منهم نصرته على قومه ومساعدته حتى يتمم أمر ربه فردوا عليه رداً قبيحاً ولم ير منهم خيراً ...

٢- ما فعله مع مشركى قريش الذين آذوه واستهزؤا به وأخرجوه من دياره هو وأصحابه ثم قاتلوه ، وحزبوا عليه غيرهم من مشركى العرب حتى تمالأ عليه جمعهم ثم لما فتح الله عليه مكة ما زاد على أن عفا وصفح ، وقال : " ماذا تظنون أنى فاعل بكم " قالوا : خيراً أخ كريم وابن أخ كريم . فقال :"اذهبوا فأنتم الطلقاء". (٣)

الوجه السادس : الرحمة بغنى القرآن

لقد أكرم الله تعالى نبي الرحمة ﷺ فأنزل على قلبه الشريف كتابه العزيز الذى هو أعظم نعمة أنعمها على أهل الأرض حيث جعله كتاباً يهدى إلى الحق وإلى الصراط المستقيم .

وإنه لعجيب فى صفاته وسماته ، غنى فى معانيه ودلالاته ، ثمين فى كنوزه وحقائقه حيٌ فى نصوصه وتوجيهاته ، قوى فى أهدافه وأغراضه ، واقعى فى مهمته

(١) انظر الأخلاق الإسلامية وأسسها عبد الرحمن حسن حبنكه : ٢/١٣ . وبحوث نفسيه وتربوية فاروق عبد السلام ، وميسرة طاهر ص٥٤ ط دار الهدى الرياض ط الأولى سنة ١٩٩٠م

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي : ك الفضائل ١٥ /٤٧٦ رقم (٢٣٢٧)

(٣) انظر نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين محمد الخضري : ص٧٤ ، ٢٢٧ ط المكتبة العصرية

ورسالته . فاعل فى أثره ودوره.. معجز فى أسلوبه وهديه ، مستمر فى عطائه ، وقد جمع الله فيه من أصول الخير ومناهج الهدى ما يصلح الحياة ، ويُرسى فى الأرض دعائم الطمأنينة والسلام قال عزّ من قائل : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء: ٩] .

فالقرآن الكريم هو : كتاب الله تعالى ، الشامل للفظ العربي ، المعجز ، المنزل على النبى ﷺ ، المكتوب فى المصاحف ، المنقول بالتواتر ، المتعبد بتلاوته . (١)

قال الراغب : قال بعض العلماء : تسميه هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله لكونه جامعاً لثمرة كتبه بل لجمعه ثمرة جميع العلوم كما أشار تعالى إليه بقوله : ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٢)

وإن من خصائص نزول القرآن الكريم على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين ليكون رحمة للعالمين وهداية للناس أجمعين ، وبخاصة المؤمنين قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[النحل: ٦٤].

الشاهد فى الآيات قوله تعالى :﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ يعنى:القرآن. (٣)

والمعنى :

وما أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن لحال من الأحوال ، ولا علة من العلل إلا لتبين للناس الذى اختلفوا فيه من التوحيد ، وأحوال البعث ، وسائر الأحكام الشرعية ، وليكون هداية تامة ، ورحمة عامة ، لقوم يؤمنون بالله سبحانه ، ويصدقون ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب . (٤)

أما الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، وهو طريق الحق والإسلام ، وصاروا دعاة إلى الضلال فاستحقوا مضاعفة العذاب بسبب تضاعف جرمهم واستمرارهم على الإفساد والفساد .

قال عزّ وجلّ : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ۝ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[النحل: ٨٨، ٨٩]

(١) انظر الإتقان للسيوطي :١/٨٨ . ومناهل العرفان فى علوم القرآن للزرقانى : ١/٧

(٢) المفردات فى غريب القرآن : ص ٤٠٢(قرأ)والآية من سورة يوسف: ١١١

(٣) الوجوه والنظائر للدامغاني: ١/ ٣٦٠

(٤) انظر فتح القدير للشوكاني: ٣/ ٢١٦

الشاهد في الآيتان قوله سبحانه : ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ يعني:القرآن.[١]

قال أبو السعود ما ملخصه قوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ الكامل في الكتابية الحقيق بأن يخص باسم الجنس ﴿ تِبْيَانًا ﴾ بياناً بليغاً﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾يتعلق بأمور الدين لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ للعالمين فإن حرمان الكفرة من مغانم آثاره من تفريطهم لا من جهة الكتاب ﴿وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾خاصة أو يكون الهدى والرحمة والبشرى خاصة بهم لأنهم المنتفعون بذلك.اهـ[٢]

ولما كان القرآن تبيانا لكل شئ صار حجة على العباد كلهم فانقطعت به حجة الظالمين ، وانتفع به المسلمون فصار هدى لهم يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم ، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة . فالهدى ما نالوا به من علم نافع وعمل صالح . والرحمة ما ترتب على ذلك من ثواب الدنيا والآخرة .

قال صاحب الكشاف عند تفسيره هذه الآية : فإن قلت : كيف كان القرآن تبياناً لكل شئ ؟ قلت : المعنى : أنه بين كل شئ من أمور الدين حيث كان نصا على بعضها أو أحاله على ما فيه باتباع رسول الله وطاعته قال تعالي : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ { النساء : ٨٠ }وقوله : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾{ النجم : ٣،٤ }أو حثا علي الإجماع في قوله:﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾{ النساء : ١١٥ } وقد رضى رسول الله ﷺ لأمته إتباع صحابته والاقتداء بآثارهم في قوله ﷺ : " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " وقد اجتهدوا وقاسوا ، وسلكوا طريق القياس ، والاجتهاد ، فكانت السنة والإجماع ، والقياس ، والاجتهاد مستنده إلى تبيان فمن ثم كان القرآن تبياناً لكل شئ . اهـ [٣]

ونظير هاتان الآيتان قوله جل وعز : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۞ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن

(١) الوجوه والنظائر للدامغاني: ١/ ٣٦٠

(٢)انظر تفسير أبي السعود:٥/١٣٥: ١٣٦

(٣) الكشاف للزمخشري : [illegible]

قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ { الأنعام :١٥٥، ١٥٧}

الشاهد في الآيات قوله سبحانه : ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾يعني القرآن.[١]

وهذا الكتاب المبارك الذى كذبوا به قد جاءهم الله به مفصل الآيات بالحكم والمواعظ والقصص والأحكام والوعد والوعيد و..و..على علم منه سبحانه بأحوال العباد في كل زمان ومكان ، وما يصلح لهم ، وما لا يصلح . حتى جاء قيماً غير ذي عوج ، وهو هدى ورحمة لقوم يؤمنون .

قال تعالي :﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ {الأعراف:٥٢}

الشاهد في الآية الكريمة: ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ يعني:القرآن.[٢]

والقرآن الكريم مع أنه مفصل الآيات ، ومعجزة المعجزات ، وهدى ورحمة إلا أن الكفرة المكذبين للنبي ﷺ لا يزالون في تعنتهم وعنادهم طاغون .

قال تعالي : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ { الأعراف : ٢٠٣ } .

الشاهد في الآية الكريمة: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ يعني : القرآن[٣]

وأما المؤمنون بالنبي ﷺ وبالقرآن فإنهم به مهتدون ، ومتبعون له سعيدون به إن شاء الله في الدارين ، وهم يفرحون أشد الفرح بعطية الله تعالى ويحق لهم ذلك . يقول تعالى مرغباً الخلق في الإقبال على هذا الكتاب العزيز بذكر مقاصده وأوصافه الحسنة الضرورية للعباد : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۞ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾{ يونس ٥٧ : ٥٨ }

(١) الوجوه والنظائر للدامغاني: ١/ ٣٦٠

(٢) الوجوه والنظائر للدامغاني: ١/ ٣٦٠

(٣) الوجوه والنظائر للدامغاني: ١/ ٣٦٠

الشاهد قوله : ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ يعني: القرآن . (١)

قال الشوكاني قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ المراد بالفضل من الله سبحانه : هو تفضله على عباده في الآجل والعاجل بما لا يحيط به الحصر ، والرحمة : رحمته لهم . وروى عن ابن عباس أنه قال فضل الله : القرآن ، ورحمته : الإسلام . وروى عن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة أن فضل الله : الإيمان ، ورحمته : القرآن . والأولى : حمل الفضل والرحمة على العموم ، ويدخل في ذلك ما في القرآن منهما دخولاً أولياً . اهـ (٢)

وقال الطاهر ابن عاشور قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾يتفرع على كون القرآن هدى ورحمة للمؤمنين تنبيههم إلى أن ذلك من فضل الله عليهم ورحمة بهم يحق لهم أن يفرحوا بها ، وأن يقدروا قدر نعمتها ، وأن يعلموا أنها نعمة تفوق نعمة المال التى حرم منها أكثر المؤمنين ومنحها أكثر المشركين . اهـ (٣)

والكتب السماوية أنزلها الله تعالى يستبصر بها كل من نزلت إليهم حتى يعلموا ما يضرهم وما ينفعهم فتقوم الحجة على العصى . وينتفع بها المؤمن ، وتكون رحمة فى حقه وهداية إلى الصراط المستقيم.

قال تعالى عن أكبر أنبياء بنى إسرائيل : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ { القصص : ٤٣ }

الشاهد فى الآية قوله:﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ يعنى : الكتاب المنزل على موسى بن عمران . (٤)

ومن المعلوم بطبيعة الحال أن الكتب السماوية متفقة فى أصول الشرائع ، وذلك يدل على أنها حق وأنها من عند الله جل جلاله ولذا يصدق بعضها بعضاً .

قال عز اسمه : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ

(١) الوجوه والنظائر للدامغاني: ١/ ٣٦٠

(٢) فتح القدير : ٢/٥٦٢

(٣) التحرير والتنوير المجلد ٦ الجزء ١١/ ٢٠٣ : ٢٠٤ ط دار سحنون تونس

(٤) بصائر ذوى التمييز للفيروز ابادى : ٣/ ٥٥

كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ { يوسف : ١١١ }

الشاهد فى الآية الكريمة: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ يعنى : القرآن .

ونظير هذه الآية قوله جل وعز: ﴿ومن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾{الأحقاف:١٢}

والمعنى : ومن قبل القرآن الكريم كتاب موسى ، وهو التوراة حالة كونه إماما يقتدى به بنو إسرائيل فى دين الله تعالى ، وشرائعه ، والحث على الفضائل ، وحالة كونه رحمة من الله تعالى لمن آمن به وعمل بموجبه ، وهذا القرآن العظيم الشأن مصدق لكتاب موسى أو لما بين يديه من جميع الكتب الإلهية ومهيمن عليها ، وجعله الله تعالى يهدى للتى هى أقوم حالة كونه لساناً عربياً فصيحاً بيناً واضحاً لينذر الذين ظلموا أنفسهم ، وغيرهم بالكفر والفسوق والعصيان إن استمروا على ظلمهم بالعذاب الوبيل ، وهو هدى وبشرى للمحسنين الذين أحسنوا فى عبادة الخالق وفى نفع المخلوقين بالثواب الجزيل . (١)

ويبين الله تعالى صفات أولئك المحسنين فى قوله تعالى : ﴿ الم ۝ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾{لقمان١:٥}

الشاهد فى الآيات قوله سبحانه: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ يعنى : القرآن إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن القرآن الكريم رحمة من الله تعالى .

فقد اشتمل القرآن الكريم على العقيدة الصحيحة السليمة التى حلت للإنسان أعظم مشكلة تلح على وجدانه متمثلة بالسؤال التالي : لماذا خلقت ؟ قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ { الذاريات : ٥٦ }.

ووضعت هذه العقيدة نظرة متميزة للكون والإنسان والحياة ، فهذا الكون من صنع الله قال تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلْ

(١) انظر تفسير أبي السعود : ٨/ ٨١ : ٨٢ . وتفسير السعدي : ص٧٢٥: ٧٢٦

الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ { لقمان ١٠، ١١ }.

وليس الكون عدوا للإنسان ، وليست الطبيعة خصما له يصارعه ويغالبه ، إنما هي من خلق الله ، وهي صديق ، فالأرض مذللة للإنسان ، وكل ما فيها مخلوق له قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ { الملك : ١٥ }.

كما قرر القرآن أن الناس مخلوقون من ذكر وأنثى ، وموزعون إلى أمم متعددة لتتعارف وأنهم متساوون لا يتفاضلون إلا بالتقوى قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ { الحجرات : ١٣ } ، والحياة الدنيا هي وحدها الطريق إلى الآخرة قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ { النساء : ١٢٤ }.

وفي هذا الكتاب الخالد أسس النظام الروحي التي حققت للمرء أن يمد شطر ذاته بغذاء مستمر ، يتمثل بعبادة الله وذكره والاتصال به جل شأنه قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ { البقرة : ١٨٦ }

وقال سبحانه : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ { البقرة }

وفي هذا الكتاب العظيم أسس النظام الأخلاقي الباهر الذي جاء به الإسلام ، فلم يتجاهل طبيعة النفس الإنسانية ، ولكنه في الوقت ذاته أخذ بهذه النفس إلا أن جعلها تحقق المثل التي كانت تتراءى لكثير من الفلاسفة والمصلحين أهدافا بعيدة . فقد دعا إلى مكارم الأخلاق ، وحذر من مساوئ الأقوال والأفعال قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ { النحل : ٩٠ } وغير ذلك من الآيات .

كما أنه يصوغ العلاقة بين الفرد والمجتمع صياغة متكاملة لا يجور أحدهما على الاخر، ويقيم الأسرة والمجتمع على أسس متينة من العدالة والتكافل الاجتماعي والمساواة والتراحم والتعاون ، ويحدد القواعد العامة في قضايا المعاملات من تجارة وقرض وبيع ومداينة وما إلى ذلك من تلك القواعد التي لا تستقيم الحياة إلا بها .وفي هذا الكتاب الكريم أسس

النظام الاقتصادي الذي يحسم الاستغلال والظلم والعدوان ، ويحقق الكفاية والعدالة والرفاهية .

كما أن فيه أسس النظام السياسي الذي تقوم عليه دولة الإسلام معتمدة على الشورى والعدل والمساواة واحقاق الحق وابطال الباطل وهدف هذه الدولة إقامة معالم الإسلام والعمل على نشره في الأرض قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [١]

الوجه السابع : الرحمة يعني : التوفيق والمنة

قال الراغب في مفرداته : الاتفاق مطابقة فعل الإنسان القدر ويقال ذلك في الخير والشر ، يقال اتفق لفلان خير ، واتفق له شر . والتوفيق نحوه لكنه يختص في التعارف بالخير دون الشر ، قال تعالى : ﴿ وما توفيقي إلا بالله ﴾ { هود :٨٨ } والمنة : النعمة الثقيلة . اهـ [٢]

وإن مما تفضل الله سبحانه وامتن به على النبي ﷺ ما جاء في قوله جل جلاله : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾{ القصص٤٦:٤٤ }.

الشاهد في الآيات الكريمة قوله عز وجل : ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ يعني : التوفيق والمنة . [٣]

ففي هذه الآيات يقول تعالى منبها على برهان نبوة محمد ﷺ حيث اخبر بالغيوب الماضية خبرا كأن سامعه شاهد وراء لما تقدم ، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئا من الكتب ، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئا من ذلك . [٤]

قال شيخ زادة في حاشيته عند تفسير هذه الآيات : إن الله تعالى لما بين قصة موسى عليه السلام قال لرسوله ﷺ : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ﴾ ثم قال : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا

---

(١) انظر لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير د / محمد لطفى الصباغ :ص٢٩ فما بعدها ط المكتب الإسلامي بيروت سنة ١٩٩٠م والاية من{الحج:٤١}

(٢) المفردات في غريب القرآن : ص ٤٧٤(منن) ، ص٥٢٨ (وفق)

(٣) نزهة الاعين النواظر لأبن الجوى : ص٣٣٤

(٤) تفسير ابن كثير : ٣/ ٣٦٦

في أهل مدين ﴾ ثم قال : ﴿ وما كنت بجانب الطور ﴾ للدلالة على أنه ﷺ لما لم يكن حاضرا هذه المواضع التي جرى فيها على موسى عليه السلام ما جرى من الأحوال العظيمة ، ثم اخبر بتلك الأحوال على ما جرت ووقعت من غير أن يشاهدها ، ويتعلمها من أحد ثبت به أنه رسول بعثه الله تعالى ، وعرفه هذه الأحوال رحمة من ربه ، وتفضلا منه عليه . اهـ[١]

وأيضا مما امتن به رب العزة سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ أن حفظه وعصمه ممن أراد أن يضله قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ۝ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۝ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۝ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ {النساء ١٠٥ : ١١١}

الشاهد في الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ ﴾ يعني : التوفيق والمنة .

قال الشوكاني قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ ﴾ خطاب لرسول الله ﷺ ، والمراد بهذا الفضل والرحمة لرسول الله ﷺ أن نبهه على الحق في قصة بني أبيرق . اهـ[٢]

كما امتن الله تعالى هذا الأمة وتفضل عليها بنعم كثيرة لا تعد ولا تحصى ، ومن ذلك إرسال الرسول ﷺ ، وإنزال القرآن الكريم ، والتوفيق ، والتأديب ، والتعليم لها وغير ذلك .

(١) حاشية شيخ زادة على تفسير البيضاوي : ٦/ ٤٥٦ : ٤٥٧

(٢) فتح القدير : ١/ ٦٤٧ . والقصة رواها الترمذي وغيره راجع الدر المنثور وأسباب النزول للسيوطي

قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۝ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ { النساء ٨٢ : ٨٣ } .

الشاهد في الآيتان قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ يعني:التوفيق والمنة. [١]

والمعنى :

لولا ما تفضل الله به عليكم من إرسال رسوله وإنزال كتابه لاتبعتم الشيطان فبقيتم على كفركم إلا قليلا منكم ، أو إلا اتباعا قليلا منكم ؛ وقيل المعنى : أذاعوا به إلا قليلا منهم فإنه لم يذع ولم يفش ، قاله الكسائي والأخفش والفراء وأبو عبيدة وأبو حاتم وابن جرير ؛ وقيل المعنى : لعلمه الذين يستنبطونه إلا قليلا منهم ، قاله الزجاج . [٢]

وإن مما امتن الله جل جلاله على عبادة ولطف بهم أن شرع لهم الأحكام ، وبين لهم المواعظ والحكم الجليلة ، ومن ذلك اللعان بين الزوجين فإنما هو من رحمته بالناس ولطفه بالمذنبين ، ولولا ذلك لهتك الستر عنهم ففضحهم ، وعجل لهم العقوبة في الدنيا ، وعذبهم في الآخرة ، ولكنه سبحانه ، رحيم ودود ، غفار للذنوب ، يقبل توبة العبد إذا أناب .

قال عز من قائل :﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾{النور ٦: ١٠}

الشاهد في الآيات قوله سبحانه : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ يعني : التوفيق والمنة .

قال أبو السعود قوله :﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾التفات إلى خطاب الرامين والمرميات بطريق التغليب لتوفية مقام الامتنان حقه ؛ وجواب لولا محذوف لتهويله والإشعار بضيق العبارة عن حصره كأنه قيل : ولولا تفضله تعالى عليكم ورحمته وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة حكيم في جميع أفعاله

(١) الوجوه والنظائر للدامغاني : ١/ ٣٦١ . والاتقان للسيوطي : ٢/ ٢٨٥

(٢) فتح القدير : ١/ ٦٢٠ . وانظر تفسير النسفي : ١/ ٢٤٠ .

وأحكامه التى من جملتها ما شرع لكم من حكم اللعان لكان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان .

ومن جملته أنه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك لوجب على الزوج حد القذف مع أن الظاهر صدقه لأنه أعرف بحال زوجته وأنه لا يفترى عليها لاشتراكهما فى الفضاحة ، وبعد ما شرع لهم ذلك لو جعل شهادته موجبة لحد الزنا عليها لفات النظر لها ، ولو جعل شهادتها موجبة لحد القذف عليه لفات النظر له ، ولا ريب فى خروج الكل عن سنن الحكمة والفضل والرحمة فجعل شهادات كل منهما مع الجزم بكذب أحدهما حتما دارئة لما توجه إليه من الغائلة الدنيوية ، وقد ابتلى الكاذب منهما فى تضاعيف شهادته من العذاب بما هو أتم مما درأته عنه وأطم ، وفى ذلك من أحكام الحكم البالغة ، وآثار التفضل ، والرحمة ما لا يخفى ؛ أما على الصادق فظاهر ، وأما على الكاذب فهو إمهاله والستر عليه فى الدنيا ودرء الحد عنه وتعريضه للتوبة حسبما ينبئ عنه التعرض لعنوان توابيته سبحانه ما أعظم شأنه وأوسع رحمته وأدق حكمته.اهـ (1)

وفى آيات قصة الإفك قال عز شأنه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ۞ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم ۞ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم ﴾ (النور ١٩ : ٢١)

الشاهد فى الآيات قوله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾يعنى التوفيق والمنة.(2)

والمعنى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى يحبون أن تفشوا الفاحشة وتنتشر، من قولهم شاع الشئ يشيع شيوعا وشيعا وشيعانا : إذا ظهر وانتشر ، والمراد بالذين امنوا المحصنون العفيفون ، أو كل من اتصف بصفة الإيمان ، والفاحشة هى فاحشة الزنا أو القول السئ ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى الدُّنْيَا ﴾ بإقامة الحد وغيره مما

(1) تفسير أبى السعود: ٦/ ١٥٩ : ١٦٠

(2) الوجوه والنظائر للدامغانى: ١/ ٣٦١ والاتقان للسيوطى : ٢ / ٢٨٥

يتفق من البلايا الدنيوية ﴿ وَالْآخِرَةِ ﴾ بعذاب النار ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فردوا الأمور إليه ترشدوا ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ كرر المنة بترك المعاجلة بالعقاب مع حذف الجواب مبالغة فى المنة عليهم والتوبيخ لهم ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ حيث أظهر براءة المقذوف وتاب على من تاب إليه من هذه القضية ، وطهر من طهر بالحد الذى أقيم عليه .

ثم قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾يعنى طرائقه ومسالكه وما يأمر به ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ هذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنها ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ ولولا أن الله تفضل الله عليكم بالتوفيق للتوبة الماصحة للذنوب وشرع الحدود المكفرة لها لما طهر منكم أحد آخر الدهر من دنس إثم الإفك ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ فهو سبحانه يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ويزكى النفوس من شركها،وفجورها ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لأقوال عباده ﴿ عَلِيمٌ ﴾بمن يستحق منهم الهدى والضلال (1) .

* * *

(1) انظر تفسير ابن كثير : ٣/ ٢٥٩ . وتفسير النسفى ٣/ ١٣٦ : ١٣٧ . وفتح القدير ٤/ ١٨ : ١٩

الوجه الثامن ، الرحمة يعني : المطر

قال الراغب : المطر الماء المنسكب ، يومٌ مطيرٌ وماطرٌ وممطرٌ ، وواد مطيرٌ أي ممطورٌ ، يقال مطرتنا السماء وأمطرتنا ... والمستمطر طالب المطر . اهـ (١)

والمتأمل في آيات القرآن يلاحظ أنها اشتملت فيما اشتملت عليه الحديث عن المطر تلك المنة والنعمة التي هي من أجل النعم علي الخلق حيث لا يستطيع أن يستغني عنها الإنسان والحيوان والنبات لأنه أصل الحياة وسببها قال تعالي: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حيٍّ﴾ { الانبياء ٣٠}

قال ابن كثير وقوله تعالي : ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حيٍّ﴾ أي: أصل كل الأحياء . اهـ (٢)

وقال الشوكاني عند هذه الآية : أي أحيينا بالماء الذي ننزله من السماء كل شئ ، فيشمل الحيوان والنبات . والمعني : أن الماء سبب حياة كل شيء . وقيل : المراد بالماء هنا النطفة ، وبه قال أكثر المفسرين . اهـ (٣)

فالله سبحانه وتعالي جعل كل شئ حي من الماء يغتذي به ويرويه ، ولا يمكن أن يصبر عليه وهو حيٌّ ، علي أنه أصله فالحيوان من النطفة التي هي ماء ، والنبات لا ينبت أبداً الا بالماء .

فالماء عنصر مهم جداً لحياة الكائن الحي من حيوان ونبات ، لم تر أن الحيوان قد يعيش بدون غذاء حوالي سبعين يوماً ما دام يشرب ماء ، ولا يعيش بدون الماء أياماً قليلة ، والنبات يجف ويموت وهو في وسط الأرض التي منها غذاؤه إذا لم يرو بالماء ، فالماء والكائن صنوان لا يفترقان فإذا افترقا هلك الحي . (٤)

والله تعالي يرسل الرياح المبشرات بالغيث ليرحم به بلداً ميتاً قد اغبرت أرجاؤه وقحط ماؤه حتي كادت تهلك حيواناته وكاد أهله أن ييأسوا من رحمة الله فأمطره فاهتزت الأرض وتحركت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، وهذا

(١) المفردات في غريب القرآن : ص ٤٦٩ - ٤٧٠ (مطر)

(٢) تفسير ابن كثير : ٣/ ١٦٨

(٣) فتح القدير : ٣/ ٥٠٤

(٤) التفسير الواضح : ٢/ ٥٢٨

أثر من آثار رحمة الله بالخلق ودليل علي قدرته علي البعث

قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾*{ الأعراف :٥٧ }*

الشاهد في الآية قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾*يعني : المطر*(١)

وقال عزّ من قائل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾{ الشورى : ٢٨} يعنى : المطر .

إلا أن أكثر الخلق لفساد أخلاقهم وطبائعهم أبوا إلا كفران النعمة ، وجحودها فقد كفر بالله سبحانه خلق كثير تعالى الله عما يشركون .

قال عزّ وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء طَهُوراً ۞ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ۞ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ {الفرقان ٥٠:٤٨}.

الشاهد في الآيات قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ يعنى:المطر (٢)

المعنى :

والله تعالي هو وحده الذى أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته تبشر بالغيث والمطر والإنبات

وأنزل بعظمته من السماء ماء بليغاً فى طهارته . أنزله ليحيى به أرضاً قد طال انتظارها للغيث ، فهي هامدة لا نبات فيها ، ولا شئ فلما جاءها عاشت ، واكتست رباها أنواع الأزهار والثمار

وليشرب من المطر الأنعام من إبل ، وبقر وغنم وغيرها : ويشرب منه أناسيّ محتاجين إليه غاية الحاجة لشربهم ، وزروعهم ، وثمارهم وهم سكان الصحارى والقفار. ولقد صرف الله المطر وغيّر أحواله فتارة يكثر، وتارة يقل ، بل وينعدم ، والله سبحانه يسوقه إلى حيث يشاء حسب إرادته وعلمه ، ليذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات

(١) الوجوه والنظائر للدامغاني: ١/ ٣٥٨

(٢) الوجوه والنظائر للدامغاني: ١/ ٣٥٨

والعظام الرفات ، ومع ذلك فقد أبى وكفر أناس كثيرون .

وقيل المراد : تصريف القرآن وتقليب حججه وآياته من حال إلى حال ليذكر الناس ويتعظوا.ومع هذا فقد كفر به خلق كثير... (١)

ونظير هذه الآيات قوله سبحانه : ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ { النمل : ٦٣} .

وقوله جلّت قدرته: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ۝ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ۝ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ { الروم ٤٦: ٥١} .

الشاهد في الآيات قوله تعالى : ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ يعني : المطر . وقوله سبحانه : ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ يعني : المطر . (٢)

وبعد : فقبل أن أختم الحديث عن هذا الوجه يأتي سؤال لماذا جاء السياق في آية الأعراف والروم بلفظ المستقبل وفي آية الفرقان وفاطر بلفظ الماضي ؟

ففي الأعراف قال تعالى :﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ {الآية : ٥٧}

(١) راجع تفسير ابن كثير : ٣/ ٣٠١: [illegible] تفسير النسفى ٣/ ١٦٩. والتفسير الواضح ٢/ ٧٣٠

(٢) الوجوه والنظائر للدامغاني: ١/ ٢٥٩

وفي سورة الروم قال عزّ من قائل : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ {الآية:٤٨ }

وفي سورة الفرقان قال جلّ وعلا : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۝ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ {الآيتان:٤٩،٤٨} .

وفي سورة فاطر قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ {الآية :٩} فهل فى كل مكان ما يقتضى اللفظ الذى خصه أم كل جائز لو جاء عليه ؟

والجواب – كما يقول الخطيب الإسكافي رحمه الله – أن يقال ، بل كل ما يوجب فى الاختيار اللفظ الذى جاء عليه ، وإن كان الله وصفه بأنه أرسل الرياح فبسط بها السحاب فساقه فأنزل منه الأمطار فأحيا به البلاد ، كوصفه بأنه يفعل ذلك فى المستقبل لأنه قادر كما كان وقد عوّد فعل ذلك وأعلمناه مشاهدة ، إلا أن آية سورة الأعراف جاء فيها ﴿يُرْسِلُ﴾ بلفظ المستقبل لأن قبلها :

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ {الأعراف ٥٥، ٥٦} فكان فى ذلك بعث على الدعاء والتضرع وتعليق الخوف والطمع بما يكون منه من الرحمة وصنوف ما رزق الله الخلق من النعمة ، فكان لفظ المستقبل أشبه بموضع الخوف والطمع للداعين وأدعى لهم إلى الدعاء .

وأما فى سورة الروم فلأن قبل الآية : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ ﴾ فبنى قوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ ﴾ على البناء الذى جعل عليه ما هو من آياته فحث على الاعتبار بما يعتادوا من فعله تبارك الله سبحانه .

وأما فى سورة الفرقان ومجئ هذا اللفظ فيها بلفظ الماضي فلأن قبل هذه الآية : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ

كيف مدّ الظّلّ ولوْ شاء لجعله ساكنا ثمّ جعلنا الشّمس عليه دليلا ۝ ثمّ قبضناهُ إلينا قبضاً يسيراً ۝ وهُو الّذي جعل لكُمُ اللّيْل لباساً والنّوم سُباتاً وجعل النّهار نُشوراً ۝ وهُو الّذي أرْسل الرّياح ﴾ {الفرقان ٤٥: ٤٨} فلما عدد أنواع ما أنعم به ، وكان إرسال الرياح من جملته عدّه بعدما تقدمه وأخبر منه عما فعله وأوجده فكان الماضي أليق به .

وأما في سورة فاطر واختيار اللفظ الماضي فيها علي المستقبل كذلك فلأن أولها : ﴿الْحمْدُ للّه فاطر السّماوات والْأرْض جاعل الْملائكة رُسُلا ﴾ {فاطر : ١ } وهما يعني الماضي لا غير فطر وجعل فبني ذلك ﴿أرْسل﴾ بلفظ الماضي ليكون الكل علي مقتضي اللفظ الذي خص به ، فافهمه فإنه يفتح عليك ما يشتبه إن شاء الله تعالي . اهـ (١)

الوجه التاسع : الرحمة يعني : النعمة قال الراغب : النعمة الحالة الحسنة التي يكون عليها الإنسان . والنعمة للجنس تقال للقليل والكثير قال تعالى : ﴿ وإن تعُدُّوا نعْمة اللّه لا تُحْصُوها إنّ اللّه لغفُورٌ رّحيمٌ ﴾ {النحل : ١٨}.

ففي الجملة الكريمة إخبار من الله تعالى ذكره عن عجز العباد عن تعداد نعم الله الظاهرة والباطنة فضلا عن القيام بشكرها ، ويتجاوز سبحانه عن تقصيركم في أداء شكر النعمة ,ولا يقطعها عنكم لتفريطكم.(٢)

واساس شكر النعمة مبنى على خمس قواعد : خضوع الشاكر للمشكور . وحبّه له . واعترافه بنعمته . وثناؤه عليه بها . وألا يستعملها فيما يكره. ومتى عدم منها واحدة : اختل من قواعد الشكر قاعدة ...ومنفعة الشكر ترجع إلى العبد دنيا وآخرة لا إلى الله ، كما قال تعالى : ﴿ ومن شكر فإنّما يشْكُرُ لنفْسه ﴾ {النمل : ٤٠} فشكر العبد إحسان منه إلى نفسه بالشكر لا أنه مكافئ به لنعم الله سبحانه

(١) انظر درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي : ص٨٠ : ٨١ ط دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى سنة ... وأسرار التكرار في القرآن للكرماني : ص١٢٠ ط دار الفضيلة تحقيق عبد القادر عطا

(٢) انظر المفردات في غريب القرآن : ص٤٩٩(نعم). وتفسير النسفي : ٢ ٢٨٣

فالله جل جلاله لا يستطيع أحد أن يكافئ نعمه أبداً ولا أقلها ، ولا أدنى نعمة من نعمه . فإنه تعالى هو المنعم المتفضل الخالق للشكر والشاكر، وما يشكر عليه . فلا يستطيع أحد أن يحصى ثناء عليه فإنه هو المحسن إلى عبده بنعمه ، وأحسن إليه بأن أوزعه شكرها .

فشكره نعمة من الله أنعم بها عليه تحتاج إلى شكر . وهلمّ جرّا. (١)

ومن نعم الله على عباده نعمة الإيجاد بعد العدم ، ونعمة الإسلام وهي من أجل النعم ، وأيضاً نعمة القرآن ، ونعمة الأهل ، والمال ، والولد ، والأخلاق ، والعلم ، والختام الحسن ، وغير ذلك مما يعرف العباد ومما لا يعرفون .

قال الشوكاني : قال العقلاء : إن كل جزء من أجزاء الإنسان لو ظهر فيه أدني خلل وأيسر نقص لنغص النعم علي الإنسان ، وتمني أن ينفق الدنيا لو كانت في ملكه حتي يزول عنه ذلك الخلل ، فهو سبحانه يدير بدن هذا الإنسان علي الوجه الملائم له ، مع أن الإنسان لا علم له بوجود ذلك فكيف يطيق حصر بعض نعم الله عليه أو يقدر علي إحصائها،أو يتمكن من شكر أدناها ؟

يا ربنا هذه نواصينا بيدك خاضعة لعظيم نعمك معترفة بالعجز عن بادية الشكر لشئ منها ، لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، ولا نطيق التعبير بالشكر لك ، فتجاوز عنا واغفر لنا ، وأسبل ذيول سترك على عوراتنا فإنك إن لا تفعل ذلك نهلك بمجرد التقصير في شكر نعمك فكيف بما قد فرط منا من التساهل في الائتمار بأوامرك والانتهاء عن مناهيك اهـ(٢)

وإن مما جاء في بيان الرحمة بمعنى النعمة قوله تعالى : ﴿فوجدا عبْداً مّنْ عبادنا آتيْناهُ رحْمةً مّنْ عندنا وعلّمْناهُ من لّدُنّا علْماً﴾ {الكهف : ٦٥} يعني : نعمةً من عندنا . (٣)

والآية الكريمة وردت في قصة موسى والخضر عليهما السلام وما كان من شأنهما .

فقوله:﴿ فوجدا عبْداً مّنْ عبادنا﴾ الجمهور على أنه الخضر بفتح الخاء وقد تكسر وكسر الضاد وقد تسكن ، وقيل اليسع ، وقيل إلياس ، وقيل ملك من الملائكة وهو

(١) انظر مدارج السالكين لابن القيم : ٢/ ٢٤٤ ، ٢٥

(٢) فتح القدير : ٣/١٩٢

(٣) الوجوه والنظائر للدامغاني: ١/ ٣٥٩

قول غريب باطل والحق الذى تشهد له الأخبار الصحيحة هو الأول.(١)

وفي سبب تسميته بالخضر قولان :

أحدهما : أنه جلس في فروة بيضاء فاخضرت رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ (٢) والفروة: الأرض اليابسة .

والثاني : أنه كان إذا جلس اخضر ما حوله، قاله عكرمة.وقال مجاهد : كان وهل كان الخضر نبيا أم لا ؟ قال ابن كثير في تفسيره عند قوله تعالى على لسان الخضر عليه السلام : ﴿وما فعلته عن أمري﴾ وما فعلته عن أمري ، أي : لكني أمرت به ووقفت عليه ، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر عليه السلام مع ما تقدم من قوله : ﴿ فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما ﴾ اهـ

وقال الألوسي رحمه الله : الجمهور على أنه عليه السلام نبي . اهـ تفسير ابن كثير ٣/ ٩٤ : ٩٥ . وروح المعاني : ١٥/ ٣٢٠ . وهامش زاد المسير : ٥/ ١٦ . إذا صلي اخضر ما حوله ... والصواب الأول .

قوله تعالى: ﴿آتيناه رحمة من عندنا﴾ في هذه الرحمة ثلاثة أقوال:

أحدها:أنها النبوة والوحي .

والثاني : النعمة التى أنعم الله بها عليه .

والثالث : الرقة والحنو على من يستحقه . (٣)

واللفظ القرآني الكريم يحتمل كل هذه المعاني فالجمهور على أن الخضر عليه السلام نبي وقد أنعم الله تعالى عليه بالعلم اللدني ، والرزق الحلال ، والعزلة عن الناس ، وعدم الاحتياج إليهم ، وطول الحياة مع سلامة البنية وغير ذلك وكان فى اتباع موسى عليه السلام له رفيقا به ، وهذا يتضح جليا من خلال الحوار بينهما . كما يشعر به تنكير الرحمة واختصاصها فى جانب الكبرياء .(٤)

---

(١) روح المعاني : ٣١٩/١٥ . وانظر صحيح مسلم بشرح النووي : ٥١٨/١٥

(٢) روي الإمام أحمد في المسند عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ فى الخضر قال : إنما سمى خضراً لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هى تهتز من تحته خضراء

وجاء فى صحيح البخارى ٣٠٩/٦ عن همام عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال "إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هى تهتز من خلفه خضراء" .

قال ابن كثير : والمراد بالفروة هاهنا : الحشيش اليابس من النبات

(٣) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزى : ٥/ ١٦٧ : ١٦٩ ط المكتب الإسلامى ط الثالثة سنة ١٩٨٣م .

(٤) انظر تفسير أبي السعود : ٥/ ٢٢٤ . وروح المعاني : ١٥ / ٣٢٠ .

قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾ أى : علماً لا يكتنه كنهه ولا يقادر قدره وهو ما علمه الله سبحانه من علم الغيب الذى استأثر به .

وفى قوله : ﴿ مِن لَّدُنَّا ﴾ تفخيم لشأن ذلك العلم وتعظيم له (١)

وكان الخضر قد أعطى من العلم ما لم يعطى موسى ، وإن كان موسى عليه السلام أعلم منه بأكثر الأشياء ، وخصوصاً فى العلوم الإيمانية والأصولية لأنه عليه السلام من أولى العزم من المرسلين الذين فضلهم الله سبحانه على سائر الخلق بالعلم ، والعمل وغير ذلك ، فلما اجتمع به موسى قال له على وجه الأدب ، والمشاورة والإخبار عن مطلبه : ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ (٢)

روي الإمام مسلم وغيره عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : إن نوفا البكالى يزعم أن موسى عليه السلام صاحب بني إسرائيل ، وليس هو صاحب الخضر عليه السلام فقال : كذب عدو الله سمعت أبى بن كعب يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " قام موسي عليه السلام خطيباً في بن إسرائيل فسئل : أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا أعلم قال : فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحي الله إليه أن عبداً من عبادي بمجمع البحرين ، هو أعلم منك .

قال موسي : أي ربِّ كيف لي به؟ فقيل له : احمل حوتاً في مكتل ، فحيث تفقد الحوت فهو ثَمَّ . الحديث

وفي هذه القصة أنواع من القواعد والأصول والفروع والآداب والنفائس منها :

١) الرحلة في طلب العلم ، واستحباب الاستكثار منه ، وأنه يستحب للعالم وإن كان من العلم بمحل عظيم أن يأخذه ممن هو أعلم منه ، ويسعي إليه في تحصيله .

٢) فضيلة طلب العلم وجواز التزود في السفر .

٣) الأدب مع العالم ، وحرمة المشايخ ، وترك الاعتراض عليهم ، وتأويل ما لا يفهم ظاهره من أفعالهم وحركاتهم وأقوالهم والوفاء بعهودهم ، والاعتذار عن مخالفة عهدهم .

---

(١) فتح القدير : ٣ / ٣٧٢

تفسير السعدي : ص٤٣١

والآية من سورة الكهف :٦٦

٤) جواز سؤال الطعام عند الحاجة ، وجواز إجارة السفينة ، وجواز ركوب السفينة والدابة وسكني الدار ولبس الثوب ونحو ذلك بغير اجرة برضى صاحبه .

٥) انه لا بأس على العالم والفاضل أن يخدمه المفضول ويقضي له حاجته .

٦) الحث علي التواضع في علمه وغيره ، وأنه لا يدعي أنه أعلم الناس ، وأنه إذا سئل عن أعلم الناس يقول : الله أعلم .

٧) بيان أصل عظيم من اصول الإسلام وهو وجوب التسليم لكل ما جاء به الشرع وإن كان بعضه لا تظهر حكمته للعقول ولا يفهمه أكثر الناس ، وقد لا يفهمونه كلهم كالقدر. موضع الدلالة قتل الغلام وخرق السفينة ، فإن صورتهما صورة المنكر وكان صحيحا في نفس الأمر له حكم بينة لكنها لا تظهر للخلق ، فإذا أعلمهم الله بها علموها ولهذا قال : ﴿ وما فعلته عن أمري ﴾ يعني بل بأمر الله تعالى . اهـ (١)

ومن الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر لفظ الرحمة بمعنى النعمة قوله تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾[مريم : ٢] أي : نعمة ربك . (٢)

وفي ارتفاع ﴿ ذِكْرُ ﴾ وجهان : أحدهما : هو خبر مبتدأ محذوف أي هذا ذكر . والثاني : هو مبتدأ والخبر محذوف أي فيما يتلى عليك ذكر ، و﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ﴾ مصدر مضاف لمفعوله والفاعل محذوف أي ذكر الله رحمته عبده زكريا في ﴿ عَبْدَهُ ﴾ على هذا مفعول ل ﴿ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ وهذه التاء في ﴿ رَحْمَةِ ﴾ لا تمنع عمل المصدر لأنها من بنية الكلمة لا للوحدة .

وقيل قوله ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ ﴾ مصدر مضاف إلى فاعله على الاتساع وعلى هذا يكون ﴿ عَبْدَهُ ﴾ مفعول ل ﴿ ذِكْرُ ﴾ ومعنى ذكر الرحمة بلوغها وإصابتها لعبده زكريا بمعنى عمله بالرحمة والنعمة لا بالغضب والنقمة . وليس المراد بالذكر حقيقته وهو ضد النسيان لأنه مستحيل . (٣)

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ك الفضائل ب من فضائل الخضر ٥٢٠،٥٢٨/١٥

(٢) الوجوه والنظائر للدامغاني: ١/ ٣٥٩

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين:٣١/٣

وعلى العموم فالرحمة الربانية تعبق رائحتها في جو(سورة مريم).

و ﴿ زكريًا ﴾ بدل على الوجهين من ﴿ عبدَه ﴾ بدل كل من كل ، أو عطف بيان له،أو نصب بإضمار أعني.(١)

الوجه العاشر: الرحمة يعني : الرزق

الرزق هو الاسم ، ويجوز أن يوضع موضع المصدر . ورزقه الله يرزقه رزقاً حسناً : نعشه . وجمعه أرزاق . وارتزقه،واسترزقه: طلب منه الرزق،وارتزق الجند:أخذوا أرزاقهم .

والرزق : ما ينتفع به ، ويقال للعطاء الجاري دنيوياً كان أم أخروياً ، وللنصيب تارة ، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة قال تعالى ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾[المنافقون: ١٠]أي من المال والجاه والعلم...

وقال في العطاء الأخروي : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[آل عمران :١٦٩] أي يفيض عليهم النعم الأخروية .

وأرزاق بني آدم مكتوبة مقدرة لهم ، وهي واصلة إليهم ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾[الذاريات :٥٨](٢)

فالرازق والرزّاق : هو الله سبحانه و تعالى القائم على كل نفس بما يقيمها من قوتها ، وما مكنها من الانتفاع به . (٣)

وبعد : فمن رحمة الله بعباده وكرمه وجوده وإحسانه أن نوّع أرزاقه ونعمه وعددها ؛ فجعل منها ما هو ظاهروما هو باطن ، وما هو أول وما هو آخر ، وما هو مادي وما هو معنوي ، وما عجله لعباده في الحياة الدنيا وما ادخره لهم في الآخرة ، فلم يُملّك سبحانه أحداً من الناس التصرف في خزائن الأرزاق لأن الإنسان مطبوع على البخل والشح إذ مبنى أمره الحاجة .

قال عزّ من قائل : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٠]

---

(١) روح المعاني:٥٨/١٦ وتفسير سورة مريم د/المحمدي عبد الرحمن ص١٥

(٢) انظر المفردات : ص١٩٤ (رزق) والنهاية لابن الأثير: ٢/ ٢١٩ ولسان العرب ١١٥/١٠:١١٦(رزق)

(٣) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد للبيهقي ص٤٣

الشاهد فى الآية : قوله تعالى ﴿ قُلْ لَوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾ يعنى :رزق ربى . [١]

قال ابن الجوزى : وفى هذه الخزائن قولان : أحدها : خزائن الأرزاق . والثانى : خزائن النعم ، فيخرج فى الرحمة قولان . أحدهما : الرزق . والثانى : النعمة .

وتحرير الكلام : لو ملكتم ما يملكه الله عز وجل لأمسكتم عن الإنفاق خشية الفاقة ...

وقال الماوردي : لو ملك أحد من المخلوقين من خزائن الله تعالى ، لما جاد كجود الله تعالى ، لأمرين : أحدهما : أنه لابد أن يمسك منه لنفقته ومنفعته . والثانى : أنه يخاف الفقر ، والله تعالى منزه فى جوده عن الحالين . اهـ [٢]

و﴿ أَنتُمْ ﴾ مرتفع على أنه فاعل فعل محذوف يفسره ما بعده : أى لو تملكون أنتم تملكون على أن الضمير المنفصل وهو ﴿ أنتم ﴾ مبدل من الضمير المتصل وهو الواو . وفائدة ذلك المبالغة والدلالة على الاختصاص وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ . إذ ليس فى الدنيا أحد إلا هو يختار النفع لنفسه ولو اثر غيره بشئ فإنما يؤثره لعوض يفوقه فإذن هو بخيل بالإضافة إلى جود الله سبحانه . [٣]

﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴾ مبالغا فى البخل ، وجاء القتر بمعنى تقليل النفقة وهو بإزاء الإسراف وكلاهما مذموم ، ويقال قترت الشئ واقترته وقترته أى قللته وفلان مقتر فقير ، وأصل ذلك كما قال الراغب من القتار والقتر وهو الدخان الساطع من الشواء والعود ونحوهما فكأن المقتر والمقتر هو الذى يتناول من الشئ قتاره . [٤]

لكن الله وسع كل شئ رحمة وعلما كما وسع غناه مفاقر عباده ، ووسع رزقه جميع خلقه فخزائنه لا تنفد أبدا يعطى عن سعة فقد جاء فى الصحيحين" يد الله ملأي لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يغض ما فى يمينه " [٥]

(١) الوجوه والنظائر للدامغاني: ١/ ٣٥٩

(٢) د المسير فى علم التفسير:٥/٩٢:٩١

(٣) انظر تفسير أبى السعود ٥/١٩٧: ١٩٨ . وتفسير النسفى ٢/٣٢٩

(٤) روح المعانى : ١٥/١٨١ . والمفردات للراغب : ص٣٩٣ (قتر)

(٥) فتح البارى ك التفسير ب (وكان عرشه على الماء) ٨/٤٤٩ رقم (٤٦٨٤) عن أبى هريرة مرفوعا .

وروى مسلم عن أبى ذر عن النبى ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى ... يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد ، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا ادخل البحر " الحديث .

قال النووى : قوله " ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر " المخيط بكسر الميم وفتح الياء هو الإبرة : قال العلماء : هذا تقريب إلى الإفهام ، ومعناه : لا ينقص شيئا أصلا كما فى الحديث الآخر " لا يغيضها نفقة " أى : لا ينقصها نفقه ، لأن ما عند الله لا يدخله نقص ، وإنما يدخل النقص المحدود الفانى ، وعطاء الله تعالى من رحمته وكرمه ، وهما صفتان قديمتان لا تطرق إليهما نقص ، فضرب المثل بالمخيط فى البحر ، لأنه غاية ما يضرب به المثل فى القلة ، والمقصود التقريب إلى الإفهام بما شاهدوه ؛ فإن البحر من أعظم المرئيات عيانا وأكبرها ، والإبرة من أصغر الموجودات ، مع أنها صقيلة لا يتعلق بها ماء . والله أعلم . اهـ [١]

ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ {فاطر: ٢ }

الشاهد في الآية قوله سبحانه : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ يعنى : من رزق . [٢]

قال أبو السعود : قوله : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ عبر عن إرسالها بالفتح إيذانا بأنها أنفس الخزائن التى يتنافس فيها المتنافسون وأعزها منالا ، وتنكيرها للإشاعة والإبهام أى : أى شئ يفتح الله من خزائن رحمته أية رحمة كانت من نعمة وصحة وأمن وعلم وحكمة إلى غير ذلك مما لا يحاط به ﴿ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ أى لا أحد يقدر على إمساكها ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ أى : أى شئ يمسك . ﴿ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ ﴾ أى : لا أحد يقدر على إرساله

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ك البر والصلة والآداب ب تحريم الظلم ١٦/١٠٣

(٢) الوجوه والنظائر للدامغاني: ١/ ٣٦٠

واختلاف الضميرين ـ لها ، نه ـ لما أن مرجع الأول مفسر بالرحمة ، ومرجع الثاني مطلق يتناولها وغيرها كائنا ما كان وفيه إشعار بأن رحمته سبقت غضبه ﴿ من بعده ﴾ أي : من بعد إمساكه ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الذي يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، والجملة تذييل مقرر لما قبلها ومعرب عن كون كل من الفتح والإمساك بموجب الحكمة التي عليها يدور أمر التكوين . اهـ (١)

والله تبارك وتعالى قد حث عباده على الإنفاق من فضله في كثير من الآيات ، وجعل ذلك صفة من صفات المؤمنين ، ووعد المنفقين بالجزاء الأوفى في الدنيا والآخرة .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ { الرعد : ٢٢}

وقال جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ۝ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾{فاطر: ٢٩ ، ٣٠}

وقال عز من قائل : ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾{ الحديد : ٧}إلى غير ذلك من الآيات.

ولكن من لم يجد النفقة بعد أن كان منفقا على الآخرين من ذوي القربى ، والمساكين وابن السبيل فعليه بميسور القول والوعد الجميل.

قال عز وجل : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾{الإسراء٢٦: ٢٨} .

الشاهد في الآيات قوله: ﴿ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ يعني:الرزق. (٢)

(١) تفسير أبي السعود : ١٤٢/٧

(٢) الوجوه والنظائر للدامغاني: ١/ ٣٦٠

سبب النزول :

قال السيوطي : أخرج سعيد بن منصور عن عطاء الخراساني قال : جاء ناس من مزينه يستحملون رسول الله ﷺ فقال : لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ، ظنوا ذلك من غضب رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ الآية

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : نزلت فيمن كان يسأل النبي ﷺ من المساكين . اهـ (١)

والمعنى : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ والخطاب إما لرسول الله ﷺ تهييجاً وإلهاباً لغيره من الأمة ، أو لكل من هو صالح لذلك من المكلفين .

والمراد بذي القربى : ذو القرابة من الرجل من قبل أبيه وأمه ، وحقهم هو صلة الرحم التي أمر الله بها بالبر والصلة والنفقة الواجبة لهم وقت الحاجة وغير ذلك ،

﴿ وَالْمِسْكِينَ ﴾ معطوف على ﴿ ذَا الْقُرْبَىٰ ﴾ وفي هذا العطف دليل على أن المراد بالحق الحق المالي ﴿ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ معطوف على ﴿ وَالْمِسْكِينَ ﴾ أي : وآت من اتصف بالمسكنة أو بكونه من أبناء السبيل حقه بالتصدق عليهما بما بلغت إليه القدرة .

ثم لما أمر الله سبحانه بما أمر به ها هنا نهى عن التبذير فقال : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ والتبذير : تفريق المال كما يفرق البذر كيفما كان من غير تعمد لمواقعه ، وهو الإسراف المذموم لمجاوزته الحد المستحسن شرعاً في الإنفاق ، أو هو الإنفاق في غير الحق وإن كان يسيراً .

﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ تعليل للنهي عن التبذير ببيان أنه يجعل صاحبه ملزوزاً في قرن الشياطين ...

﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ من تتمة التعليل أي مبالغاً في كفران نعمة الله تعالى لأن شأنه صرف جميع ما أعطاه الله تعالى من القوى والقدر إلى غير ما خلقت له من أنواع المعاصي والإفساد في الأرض ، وإضلال الناس ، وحملهم على الكفر بالله تعالى ، وكفران نعمه الفائضة عليهم ، وصرفها إلى غير ما أمر الله تعالى به .

(١) أسباب النزول : ص١٨٠ وانظر روح المعاني : ١٥/ ٦٤

وفــي تخصيص هذا الوصف بالذكر من بين صفاته القبيحة إيذان بأن التبذير الذى هو عن صرف نعم الله تعالــى إلــى غير مصارفها من باب الكفران المقابل للشكر الذى هو صــرفها إلــى مـا خلقـت له وفى التعـرض لعـنوان الربوبية إشعار بكمـال عتوه فإن كفران نعمة الرب مع كون الربوبية من قوى الدواعي إلــى شـكرها غاية الكفران ونهاية الضلال والطغيان . [١]

﴿ وَإِمَّـا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَـــةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ أى : وإن أعرضـت عــن ذى القربــى والمـسكين وابن السبيل حياء لفقد رزق مــن ربك ترجوا أن يفتح لك فــسمى الرزق رحمة أقيم المسبب الذى هو ابتغاء رحمة الله مقام السبب الــذى هو فقد الرزق لأن فاقد الرزق مبتغ له .

﴿ فَقُـل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً ﴾ أى قــولاً سـهلاً ليناً كالوعد الجميل أو الاعتذار المقبول [٢] لينقلبوا عنك ، مطمئـنة خواطرهم كما قال تعالى : ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَـدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ {البقرة}

وهذا من لطف الله تعالى بعباده ، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه ، لأن انــتظار ذلـك عبادة ، وكذلك وَعْـدُهُمْ بالــصدقة والمعروف عند التيـسر عـبادة حاضرة ، لأن لهم بفعـل الحسنة حسنة ، ولهذا ينبغي للإنـسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير ، وينوى فعل ما لم يقدر عليه لثياب على ذلك ، ولعل الله ييسر له بسبب رجائه . [٣]

ومن الآيات التى ورد فيها كلمة الــرحمة بمعنى الرزق قوله تعالى حكاية عن أهل الكهف : ﴿ وَإِذِ اعْتَـزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَــأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ {الكهف : ١٦}

الــشاهد فى الآية الكريمة قوله سـبحانه : ﴿ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمــته ﴾ أى : يبـسط عليكم من رزقه . [٤]

---

(١) انظر المـصدر السابق : ١٥ / ٦٣ .وتفسير أبى السعود : ٥/ ١٦٨

(٢) انظر تفسير النسفى : ٢/ ٣١٢ وفتح القدير: ٣/ ٢٧٦

(٣) تفسير السعدي : ص٤٠٨

(٤) زاد الميـسر :٥/ ١١٦ . وتفـسير النسفى: ٥/٣ .والوجوه والنظائر:١/ ٣٦٠

والمعنى: وإذا اعتزلتموهم يـ هل الكهف وفارقتموهم وتنحيتم عن العابـدين للاصــنام جانبا واعتزلتم عــبادتهم وما عبدتم إلا الله الواحد القهـار ، فأووا إلى الكهف وصيروا اليه ، واجعلوه مأواكم ، لتعتزلوهم جسيما بعد فراقهم روحيا ، إن تأووا إلــيه يبـسط لكم ربكم من رحمته ورزقــه فى الدارين ويقدر لكم من أمــركم الــذى أنــتم فيه من الفرار بالــدين أمــراً تــرتفقون بـــه ، وتنــتفعون[١]وكانــوا قد دعوا الله بقــولهم : ﴿ رَبَّــنا آتِنا من لَّدُنك رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ﴾ {الكهف: ١٠}فجمعوا بين التبرّي من حولهم وقوتهم ، والالتجاء إلى الله فــى صلاح أمرهم ، ودعائه بذلك ، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك ، لا جــرم أن الله تعالــى نشر لهم من رحمته ، وهيأ لهم من أمرهم مرفقا ، فحفظ أديانهم وأبدانهم ، وجعلهم من آياته على خلقه ، ونشر لهم من الثــناء الحسن ، ما هو من رحمته بهــم ، ويسر لهم كل سبب ، حتى المحــل الــذى ناموا فيه كان على غايــه ما يمكن من الصيانه .. ولهذا قال سبحانه وتعالي:﴿ وَتَرَى الــشَّمْسَ إِذَا طَلَعَــت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِــمْ ذَاتَ الْيَمِــينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُــهُمْ ذَاتَ الــشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْــوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْــدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً﴾{الكهف}

الــوجه الحادي عشر : الرحمة يعني : النصر والفتح

قال الراغب : النَّصْرُ و النُّصْرَةُ والعون قال تعالي : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ ﴾ {آل عمران : ١٦٠}... ونصرة الله للعبد ظاهرةٌ ، ونُصرة العبد لله هو نصرته لعباده ، والقــيام بحفــظ حــدوده ، ورعاية عهــوده ، واعتـــناق أحكامـــه ، واجتناب نهيه قال تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ { الحديد : ٢٥} ... والانتــصار والاستــصار طلب النصرة ...والتناصر التعاون.اهـ[٢]

إن الله جــلّ جلالـــه يحــرض المؤمنــين على التجرد له والاتجاه إلــى نصرة دينه وشريعته ويعدهم علــى هــذا بالنــصر والتثبيت قال

---

(١) انظر فتح القدير : ٣/ ٣٤٠ : ٣٤١ . وتفسير ابن كثير٣٠/ ٧١ والتفسير الواضح

(٢) المفردات للراغب : ص٤٩٥ (نصر)

سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ {محمد ٧: ٩}

فليس بيننا وبين النصر فى أى زمان أو مكان إلا أن نستكمل حقيقة الإيمان ونستكمل مقتضيات هذه الحقيقة فى واقع حياتنا منهاجاً للحياة ونظاماً للحكم وتجرداً له فى كل خاطرة وحركة وعبادة لله فى كل شئ .

ومن حقيقة الإيمان أن نأخذ العدة ونستكمل القوة فى كل شؤون الحياة وألا نركن إلى الأعداء ، وألا نطلب العزة إلا من الله قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ { الأنفال : ٦٠}

وقال جل شأنه : ﴿ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾ {هود : ١١٣}

وقال عز من قائل : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ {آل عمران : ١٢٦}

والله تبارك وتعالى فى خلقه سنن وشؤون ، ومن سنة الله القديمة تمحيص المؤمنين وإعدادهم ليعلم الصادق من الكاذب .

قال جل شأنه : ﴿ الم ۞ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ {العنكبوت١: ٣}

وقال سبحانه : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ {آل عمران : ١٨٦}

ومن هذا الابتلاء لقاء الأعداء ، والنيل منهم قال عزّ من قائل : ﴿ فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۞ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۞ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ {محمد ٤: ٦}

إن نصر الله تعالى مدّخر لمن يستحقونه ، ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية : الذين يثبتون على الباساء والضراء . الذين يصمدون للزلزلة . أما الذين يفرون من الميدان فذلك لا يغني عنهم من الله شيئا ، لأن الفرار لا يؤخر الأجل ، ولا يطول الأعمار فمن حضر أجله مات او قتل فرّ او لم يفرّ .

قال تعالى : ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ { الأحزاب ١٦: ١٧}

الشاهد فى الآيتان الكريمتان قوله سبحانه : ﴿ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ يعنى : النصر والفتح . اهـ [1]

والمعنى :

من ذا الذى يمنعكم من الله إن أراد بكم سوءاً كالهزيمة والمغلوبية أو أراد بكم رحمة كالنصر والغلبة.[2]

قال الشوكاني في قوله تعالي : ﴿ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا ﴾ أى : هلاكاً أو نقصاً فى الأموال ، وجدباً ، ومرضاً ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ يرحمكم بها من خصب ، ونصر ، وعافية ، ﴿ولا يجدون لهم من دون الله وليا﴾ يواليهم ويدفع عنهم ﴿ولا نصيرا ﴾ ينصرهم من عذاب الله . اهـ [3]

إن وعد الله بالنصر والغلبة للمؤمنين واقع ، وكلمة الله قائمة ، والله تقدست أسماؤه لا يخلف الميعاد .

قال عزّمن قائل : ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ۞ إنهم لهم المنصورون ۞ وإن جندنا لهم الغالبون﴾{الصافات١٧٣:١٧١}

وقال سبحانه وتعالي : ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ﴾ { غافر : ٥١}

ولكن قد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله ، وتتجرد فى كفاحها ، وبذلها وتضحياتها لله سبحانه فهي لا تقاتل لمغنم تحققه ، أو تقاتل حمية لذاتها ، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها .

---

(١) الوجوه والنظائر الدامغاني: ١/ ٣٦١

(٢) حاشية شيخ زادة على تفسير البيضاوى : ٦/ ٦٢٠ ط دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى سنة ١٩٩٩م

(٣) فتح القدير : ٤/ ٣٣٢ *الوجه الثاني عشر : الرحمة يعنى : العافية*

وقد يبطئ النصر لأن الباطل الذى تحاربه الأمة المؤمنة لم يتكشف زيفه للناس تماماً . فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصار من المخدوعين فيه ، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله ، فتظل له جذور فى نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة . فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عارياً للناس ، ويذهب غير مأسوف عليه من ذى بقية .

كما قد يبطئ النصر لأن البيئة لم تصلح بعد لاستقبال الحق ، والخير والعدل الذى تمثله الأمة المؤمنة . فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر معها قرار . فيظل الصراع قائماً حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ، ولاستبقائه . من أجل هذا كله وغيره مما يعلمه الله قد يبطئ النصر ، فتتضاعف التضحيات وتتضاعف الآلام ويتضاعف الثواب وعندئذ تتهيأ البيئة لاستقباله واستبقائه

العافية كلمة جامعة لكل خير مانعة من كل شرّ .

قال الراغب : والعافية : ترك العقوبة والسلامة . اهـ (١)

وقال ابن الأثير : فى أسماء الله العفو وهو فعول من العفو وهو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه وأصله المحو والطمس وهو من أبنية المبالغة عفا يعفو عفواً فهو عاف وعفوّ ... ومنه حديث أبى بكر ﷺ " سلوا الله العفو والعافية والمعافاة " . فالعفو : محو الذنب . والعافية : أن تسلم من الأسقام والبلايا... والمعافاة : هى أن يعافيك الله من الناس ويعافيهم منك : أى يغنيك عنهم ويغنيهم عنك ويصرف أذاهم عنك وأذاك عنهم. اهـ(٢)

والمؤمن مع أنه مأمور بأخذ الاحتياط والحزم والحزر وإعداد العدة إلا أنه فى الوقت ذاته منهيّ عن تمنى لقاء العدو وسؤال الله.

قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾(النساء: ٧١)

وقال : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ

---

(١) المفردات للراغب : ص٣٤٠ (عفا)

(٢) النهاية لابن الأثير:٣/ ٢٦٥ (عفا).ولسان العرب لابن منظور:٦/ ٣٣٩ (عفا)

في سبيل الله يُوفَّ إليكم وانتم لا تُظلَمُونَ﴾(الأنفال: ٦٠)

وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن أبي أوفى : أن رسول الله ﷺ - فى بعض أيامه التى لقي فيها العدو- انتظر حتى مالت الشمس ، ثم قال فى الناس فقال : " لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف " ثم قال : " اللهم منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب،اهزمهم وانصرنا عليهم " .

قال ابن بطال : حكمة النهى أن المرء لا يعلم ما يؤول إليه الأمر ، وهو نظير سؤال العافية من الفتن ،

وقد قال الصديق : " لأن أعافى فاشكر خير من أن ابتلى فاصبر" ...

وقال ابن دقيق العيد : لما كان لقاء الموت من أشق الأشياء على النفس وكانت الأمور الغائبة ليست كالأمور المحققة لم يؤمن أن يكون عند الوقوع كما ينبغي فيكره التمني لذلك ولما فيه لو وقع من احتمال أن يخالف الإنسان ما وعد من نفسه ، ثم أمر بالصبر عند وقوع الحقيقة.اهـ(١)

وقال الإمام النووى : إنما نهى عن تمنى لقاء العدو لما فيه من صورة الإعجاب ، والاتكال على النفس والوثوق بالقوة ... ولأنه يتضمن قله الاهتمام بالعدو واحتقاره ، وهذا يخالف الاحتياط والحزم ، وتأوله بعضهم على النهى عن التمني فى صورة خاصة ، وهى إذا شك فى المصلحة فيه وحصول الضرر ، وإلا فالقتال كله فضيلة وطاعة ، والصحيح الأول ، ولهذا تممه ﷺ بقوله : ﷺ "وسلوا الله العافية " وقد كثرت الأحاديث فى الأمر بسؤال العافية وهى من الألفاظ العامة المتناولة لدفع جميع المكروهات فى البدن والباطن فى الدين والدنيا والآخرة . اهـ (٢)

من أجل هذا كله وغيره فإنه مهما يعمل الإنسان ، ومهما يتعلم فإن موقفه أمام باب الغيب الموصد ، وأمام ستر الغيب المسدل ، سيظل

---

(١) فتح البارى ك الجهاد ب لا تتمنوا لقاء العدو ٦/ ١٥٦: ١٥٧ رقم(٣٠٢٥)

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ك الجهاد والسير باب كراهية تمنى لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء ١٢/ ٤٠٥ رقم (١٧٤٢)

يذكره ببشريته أمام عالم الغيب المحجوب . فإن الرسول ﷺ وهو من هو لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا فضلاً عن غيره .

قال تعالي : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ { الأعراف : ١٨٨ }

فالأمر إذن لله تعالي ، فله القدرة المطلقة في عالم الأسباب ، وله القهر كذلك علي العباد ، وعنده الحكمة البالغة في المنع والعطاء .

قال تعالي : ﴿ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ {الأعراف: ٥٤ }

ومن هنا فقد وصّى رسول الله ﷺ الأمة بوصية عظيمة اشتملت على قواعد كلية من أهم أمور الدين، وذلك فى شخص عبدالله بن عباس رضي الله عنه .

روى الترمذي وغيره عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال : كنت خلف النبى ﷺ فقال : " يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ ، لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشئ ، لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف " ...

وروى الإمام أحمد من حديث أبى الدرداء عن النبي ﷺ قال : " إن لكل شئ حقيقة ، وما بلغ عبدٌ حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه " ...

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله معلقاً على تلك الوصية[1] : " واعلم أن مدار جميع هذه الوصية على هذا الأصل ، وما ذكر قبله وبعده ، فهو متفرع عليه ، وراجع إليه ، فإن العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر ، ونفع وضر ، وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غيرُ مفيد البتة ، علم حينئذ

(١) جامع العلوم والحكم : ١/ ٤٨٤ : ٤٨٥ تحقيق شعيب الأرناؤوط ط مؤسسة الرسالة ط السابعة ٢٠٠٠م والحديث رواه الترمذي رقم (٢٥١٦) وأحمد : ١/ ٢٩٣ وأبو يعلى رقم (٢٥٥٦)

أن الله وحده هو الضار النافع ، المعطى المانع ، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل ، وإفراده بالطاعة ، وحفظ حدوده ، فإن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار ، ولهذا ذم الله من يعبد من لا ينفع ولا يضر ، ولا يغنى عن عابده شيئا ، فمن علم أنه لا ينفعُ ولا يضرُّ ، ولا يعطى ولا يمنع غير الله ، أوجب له ذلك إفراده بالخوف والرجاء والمحبةَ والسؤال والتضرع والدعاء ، وتقديم طاعته على طاعة الخلق جميعاً ، وأن يتقى سخطه ، ولو كان فيه سخط الخلق جميعاً ، وإفراده بالاستعانة به ، والسؤال له ، وإخلاص الدعاء له فى حال الشدة وحال الرخاء بخلاف ما كان المشركون عليه من إخلاص الدعاء له عند الشدائد ، ونسيانه فى الرخاء ، ودعاء من يرجون نفعه من دونه .

قال الله عز وجل : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ {الزمر:٣٨}

الشاهد فى الآية قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ ﴾ يعنى : بعافية ﴿ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ يعنى : عافيته . [1]

والمعنى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ لظهور الدليل ووضوح السبيل فقد تقرر فى العقول وجوب انتهاء الممكنات إلى واجب الوجود ، وفى هذا أعظم دليل على أنهم كانوا فى غفلة شديدة وجهالة عظيمة لأنهم إذا علموا أن الخالق لهم ولما يعبدون من دون الله هو الله سبحانه ، فكيف استحسنت عقولهم عبادة غير خالق الكل وتشريك مخلوق مع خالقه فى العبادة ؟

ثم أمر الله تعالى رسوله أن يبكتهم بعد هذا الاعتراف ويوبخهم فقال : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ أى أخبرونى

(١) الوجوه والنظائر الدامغانى : ١/ ٣٦١ . وبصائر ذوى التمييز : ٣/ ٥٦

عـن آلهـتكم هذه هل تقدر على كشف ما أراد الله بى من الضر من مـرض أو فقر أو شدة أو أعلى من الشدة ؟

﴿ أَوْ أَرَادَنِـي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ أى أو أراد أن يـصيبني بخير وصحة وعافية هل يقدرن على أن يمسكنها عنى ؟

وتعليـق إرادة الـضر والرحمة بنفسه النفيسة ﷺ حيث قال : ﴿ أَوْ أَرَادَنِـي ﴾ ولم يقل : إن أرادكم لأن المراد تبكيت المشركين فى تخويفهم إيـاه ﷺ بقولهم : لتكفنّ عن شتم آلهتـنا ، أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون ، وقدم الضر لأن دفعه أهم .

﴿ قُـلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ أى الله جل شـأنه كافـيّ فى جميع أموري من إصابة الخير ودفع الشر ، وحذف المـتعلّق فـى هذه الجملة الكريمة لعمـوم المتعلقات ، أى حسبي الله من كل شئ وفى كل حال .

﴿عَلَـيْهِ يَـتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أى علـيه ، لا علـى غيـره يعـتمد المعــتمدون ، وهــم الرسـل والصالحون وإذ قد كنت من رفيقهم فكنت مثلهم فى ذلك على نحو قوله تعالـى :﴿ أُولَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ { الأنعام ٩٠}

وتقديم المجرور على (يَتَوَكَّلُ) لإفـادة الاختصاص لأن أهل التوكل الحقيقيـين لا يتوكلون إلا على الله تعالى ، وذلك تعريض بالمشركين إذ اعـتمدوا فـى امـورهم علـى اصنامهم.[1]

ومـن ذلـك قوله تعالى :﴿قُلْ أَنَدْعُـو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَـدَانَا اللَّـهُ كَالَّـذِي اسْتَهْوَتْهُ الـشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْـحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾{الأنعام: ٧١}

وقـوله سبحانه وتعالي :﴿قُلْ مَـن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُـلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُـواْ لِلَّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ

(١) انظـر روح المعانـى : ٢٤/ ٦. والتحريـر والتنوير المجلد الحادي عشر الجـزء ٢٤ / ١٨ : ١٩ . وحاشية شيخ زادة على تفسير البيضاوي : ٧ :٢٥٦، ٢٥٧ وفتح القدير : ٤/ ٥٧٦ .

كُـلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ { الرعد : ١٦}

وقوله عز من قائل : ﴿قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَـشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً﴾ { الإسراء : ٥٦} إلى غير ذلك من الآيات .

إنـه متى استقرت حقيقة الإيمان فـى قلـب المؤمن فقد انتهى الأمر بالنـسبة إليه ، وقد انقطع الأمل إلا فـى جناب الله سبحانه ، فهو كاف عـبده ، وعلـيه يتوكل وحده .. ثم إنهـا الطمأنيـنة بعد ذلك ، والثقة واليقـين الطمأنينة التى لا تخاف ، والثقة التى لا تقلق ، واليقين الذى لا يتزعزع .

قـال تعالـى : ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِـكَ عَلَـى اللَّـهِ يَسِيرٌ ۞ لِكَيْلَا تَأْسَـوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ {الحديد ٢٢: ٢٣} .

وبهذا تستقر النفس وتطمئن لما يـصيبها من خير أو شر، وهى فى طريقها إلى الله ، فلا تطير جزعا ، ولا تبطـر فرحاً ، وهى تواجه الـسراء والضراء . ولا تشرك بالله سبباً ولا ظرفاً ولا حادثاً ، فكله بقدر مقسوم لأجل معلوم .

* * *

الـوجه الثالث عشر : الرحمة يعني : المودة

قـال الراغب : الودُّ محبة الشئ وتمنـي كونه... وقوله : ﴿ وجعل بينكم مودةً ورحمةً ﴾{ الروم: ٢١ } وقـوله سـبحانه : ﴿سيجعل لهمُ الـرحْمنُ وُدًا﴾ { مـريم : ٩٦ } فإشارة إلى ما أوقع بينهم من الألفة المذكورة في قوله تعالي:﴿لوْ أنفقْتَ ما في الأرْض جميعاً مّا ألّفْتَ بيْن قُلـوبهمْ ولـكنّ اللّه ألّف بيْنهُمْ ﴾ {الأنفـال :٦٣ } وفـي المودة التي تقتـضي المحـبة المجـردة قـوله سـبحانه : ﴿ قـل لّا أسْألُكُمْ عليْه أجْراً إلّـا الْمـودّة في الْقُرْبى﴾ { الشورى : ٢٣ } وقوله عز وجل : ﴿ وهو الغفورُ الودودُ ﴾ { البروج : ١٤ } ... قال بعضهم : مودة الله لعباده هي مراعاته لهم . اهـ [١]

وقـال البيهقي : (الودود) هو الـذي يـود عباده المؤمنين ويوده عـباده المؤمنـين ، ومحـبة الله : إرادتـه رحمتهم ومدحهم ، فيرجع معـناه إلى صفة الإرادة والكلام . وقـد يكون بمعنى : إنعامه عليهم ، ومـن إنعامه عليهم أن يوددهم إلى خلقـه ، وهو على هذا المعنى من صفات فعله . اهـ [٢]

وقـال ابـن القيم : الود : صفو المحبة ، وخالصها ولبها ، والودود مـن أسماء الله تعالى وفيه قولان : أحـدهما : أنــه المـودود . قـال الـبخاري رحمه الله في صحيحه : الودود الحبيب . والثاني : أنه الوادّ لعـباده . أي المحـب لهم . وقرنه باسـمه الغفـور إعلاما بأنه يغفر الـذنب ، ويحب التائب منه ، ويوده فحظ التائب: نيل المغفرة منه. اهـ [٣]

ومـن هنا فقد وصف الله تعالي المؤمنـين فـي كتابه العزيز بأنهم متـراحمين متوادين متعاطفين فيما بيـنهم ، وذلك تشريفاً وكرامة فقال تعالـي : ﴿ مُحمّـدٌ رّسُـولُ اللّه والّـذين معـهُ أشدّاء علي الْكفّار رُحمـاء بيْنهُمْ ترَاهُمْ رُكّعاً سُجّداً يبْـتغُون فضْلاً مّن اللّه ورضْواناً سـيماهُمْ فـي وُجُوههم مّنْ أثر الـسُّجُود ذلـك مثلُهُمْ في التوْراة ومـثلُهُمْ في الْإنْجيل كزرْعٍ أخْرج شـطْأهُ فـآزرهُ فاسْتغْلظ فاسْتوى علـى سُوقه يُعْجبُ الزُّرّاع ليغيظ بهـمُ الكفار وعد اللّهُ الذين آمنُوا وعملُـوا الصّالحات منْهُمْ مّغْفرةً وأجْراً عظيماً﴾{الفتح: ٢٩}

الـشاهد فـي الآية قوله تعالى: ﴿رُحماء بيْنهُمْ ﴾يعنى: متوادين. [١]

وأشداء جمع شديد ورحماء جمع رحيم .

والمعنى :

أنهـم يظهرون لمن خالف دينهم الـشدة والصلابة ولمن وافقهم في الدين الرحمة والرأفة . [٢]

عـن الحـسن رضي الله عنه : بلـغ من تشددهم على الكفار: أنهم يتحرزون مـن ثيابهم أن تلزق بثيابهم ، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم ؛ وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه... فمن حق المسلمين في كل زمان أن يـراعوا هـذا التشدد وهذا التعطف فيتشددوا على من ليس على ملتهم ودينـهم ، ويـتحاموه ويعاشـروا إخـوانهم في الإسلام متعطفين بالبر والصلة ، وكف الأذى ، والمعونة ، والاحتمال ، والأخلاق السجيحة [٣]

فما أحوجنا إلى تلك الأخلاق الـزكية والعظـيمة والتـي تجعـل المؤمنـين كالجسد الواحد وكالبنيان يشد بعضه بعضا.

ففـي الصحيحين عن النعمان بن بـشير قال : قال رسول الله ﷺ : " ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعـاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عـضو تداعى سائر جسده بالسهر والحمى "

وقـوله ﷺ :" المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا" .

ونظيـر هذه الآية قوله تعالي : ﴿ يـا أيُّهـا الّذينَ آمنُواْ من يرْتدّ مـنكُمْ عن دينه فسوْف يأْتي اللّهُ بقـوْمٍ يُحبُّهُمْ ويُحبُّونهُ أذلّةٍ على الْمُؤْمنـينَ أعـزّةٍ على الْكافرينَ يُجاهـدُونَ فـي سـبيل اللّه ولاَ يخافُـونَ لـوْمة لآئمٍ ذلكَ فضْلُ اللّه يُؤْتيه من يشاءُ واللّهُ واسعٌ عليمٌ ﴾ {المائدة : ٥٤}

قـال النسفي قوله : ﴿ أذلّة ﴾ جمع ذليل- وأما ذلول فجمعه ذلل... ﴿ على الْمُؤْمنين﴾ ولم يقل للمؤمنين لتـضمن الذل معنى الحنو والعطف كأنـه قيل عاطفين عليهم على وجه الـتذلل والتواضع﴿ أعـزة علـى الكافـرين ﴾ أشداء عليهم والعزاز

(١) المفردات للراغب ص [illegible]

(٢)الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد ص[illegible]

(٣) مـدارج الـسالكين : ٣/ ٢٢ (منزلة المحبة)

(١) الوجوه والنظائر الدامغاني: ١/ ٣٦١

(٢) تفسير أبي السعود : ٨/ ١١٤

(٣) تفسير الكشاف للزمخشري :٤/ ٣٣٧ قال محققه قوله (والأخلاق السجيحة) أي السهلة. افاده الصحاح (ع)

الأرض الصلبة فهم مع المؤمنين كالولد لوالده والعبد لسيده ومع الكافرين كالسبع على فريسته.اهـ[١]

وقال الشوكانى عند هذه الآية : يظهرون العطف والحنو والتواضع للمؤمنين ويظهرون الشدة والغلظة والترفع على الكافرين ، ويجمعون بين المجاهدة فى سبيل الله وعدم خوف الملامة فى الدين ، بل هم متصلبون لا يبالون بما يفعله أعداء الحق وحزب الشيطان من الإزراء بأهل الدين وقلب محاسنهم مساوئ ومناقبهم مثالب حسداً وبغضاً وكراهة للحق وأهله . اهـ[٢]

قلت : وهذا ما يحدث في ذلك العصر فقد ظهر الدنيمارك الصور المسيئة للنبي ﷺ ، و جاء على لسان جورج بوش إعلان الحرب الصليبية على الإسلام مرة ، ووصفه للإسلام بالفاشية مرة أخرى وأخيرا وليس آخرا ما صدر على لسان بابا الفاتيكان بندكت السادس عشر بالتصريحات المسيئة للاسلام ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾(الكهف ٥)

ومن الآيات التي وردت في وصف المؤمنين بأنهم رحماء بينهم قوله جلّ جلاله:﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾(البلد ١١: ١٨) .

قال الزمخشرى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ جاء بثم لتراخى الإيمان وتباعده فى الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة . لا فى الوقت ؛ لأن الإيمان هو السابق المقدم على غيره ولا يثبت عمل صالح إلا به .

والمرحمة : الرحمة ، أى : أوصى بعضهم بعضا بالصبر على الإيمان والثبات عليه . أو بالصبر عن المعاصى وعلى الطاعات والمحن التى يبتلى بها المؤمن ، وبأن يكونوا متراحمين متعاطفين ، أو بما يؤدى إلى رحمة الله. اهـ[٣]

ومن الآيات التى وردت فيها الرحمة بمعنى المودة ، مع بيان

---

(١) تفسير النسفي [illegible] ٢٨٨ [illegible] ٢٠٩ .
(٢) فتح القدير [illegible] ٥٠ [illegible]
(٣) تفسير الكشاف : [illegible]

الموافقة بين أهل الإيمان ما جاء فى الحواريين الذين اتبعوا عيسى عليه السلام وما جعله الله تعالى فى قلوبهم من مودة لبعضهم البعض ، ورحمة يتراحمون بها .

قال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ { الحديد ٢٦: ٢٧} .

الشاهد فى الآيتان الكريمتان قوله تعالى : ﴿ وجعلنا في قلوب الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ يعنى مودة . [١]

قال الإمام النسفى قوله : ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً﴾ مودة ولينا ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ تعطفا على إخوانهم كما قال فى صفة أصحاب النبي ﷺ ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾. اهـ [٢]

وقال الشوكانى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً﴾ الذين اتبعوه هم الحواريون جعل الله فى قلوبهم مودة لبعضهم البعض،ورحمة يتراحمون بها ، بخلاف اليهود فإنهم ليسوا كذلك. اهـ [٣]

الوجه الرابع عشر : الرحمة يعنى : المغفرة

من حكمة الله تعالى تعريفه عبده أنه لا سبيل إلى النجاة إلا بعفوه ومغفرته وأنه رهين بحقه ، فإن لم يتغمده بعفوه ، ومغفرته وإلا فهو من الهالكين لا محالة فليس لأحد من خلقه إلا وهو محتاج إلى عفوه ومغفرته كما هو محتاج إلى فضله ورحمته .

قال الراغب : الغَفْرُ إلباسُ ما يصونه عن الدنس ومنه قيل اغفر ثوبك فى الوعاء واصْبُغ ثوبك فإنه أغْفر للوسخ ، والغفران والمغفرة من الله هو أن يصونَ العبد من أن يمسه العذاب . اهـ[٤]

---

(١) الوجوه والنظائر الدامغانى : ١/ ٣٦١ وبصائر ذوى التمييز: ٣/ ٥٧

(٢) تفسير النسفى : ٤/ ٢٣٠ وانظر تفسير الكشاف : ٤/ ٤٦٨
(٣) فتح القدير : ٥/ ٢٢١
(٤) المفردات فى غريب القرآن : ص ٣٦٢ (غفر)

قال ابن القيم :(١) والله تعالى إنما يغفر للعبد إذا كان وقوع الذنب منه على وجه غلبة الشهوة وقوة الطبيعة فيواقع الذنب مع كراهته له من غير إصرار فى نفسه فهذا ترجى له مغفرة الله وصفحه وعفوه لعلمه تعالى بضعفه وغلبة شهوته له ، فإذا واقع الذنب واقعه مواقعة ذليل خاضع لربه خائف مختلج فى صدره شهوة النفس الذنب وكراهة الإيمان له فهو يجيب داعي النفس تارة وداعي الإيمان تارات . فأما من بنى أمره على أن لا يقف على ذنب ولا يقدم خوفاً ولا يدع لله شهوة وهو فرح مسرور يضحك ظهراً لبطن إذا ظفر بالذنب فهو الذى يخاف عليه أن يحال بينه وبين التوبة ولا يوفق لها . كما أن العبد إذا عاين الانتقال إلى الله تعالى لم ينفعه توبة ولا إقلاع قال سبحانه : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾{النساء:٨٠}

وقال عزّ من قائل : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۞ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾{غافر}

والله تعالى تقدست أسماؤه لا يقع فى كونه إلا ما يريد فهو مالك السموات والأرض ومن فيهما ، وقد كتب على نفسه المقدسة الرحمة فضلاً منه وتكرماً قال سبحانه : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ { الأنعام : ١٢ } .

الشاهد فى الآية قوله : ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ يعنى : المغفرة .(٢)

يقول الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ ﴿ قُل ﴾ لهؤلاء المشركين ، مقرراً لهم وملزماً بالتوحيد ﴿ لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى من الخالق لذلك ، المالك له ، المتصرف فيه ؟ وهذا احتجاج عليهم وتبكيت لهم

(١) مفتاح دار السعادة : ١/ ٤٢٦ . بتصرف يسير

(٢) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطي : ١/ ٢٨٥

﴿ قُل لِّلَّهِ ﴾ تقرير لهم أى هو لله لا خلاف بيني وبينكم ولا تقدرون ان تضيفوا منه شيئا إلى غيره . وإذا ثبت ان له ما فى السموات والارض إما باعترافهم ، أو بقيام الحجة عليهم فالله قادر على أن يعاجلهم بالعقاب ، ولكنه ﴿ كتب على نفسه الرحمة ﴾ أى : وعد بها وعدا مؤكداً وهو منجزه لا محالة فضلاً منه وتكرما ، وذكر النفس هنا عبارة عن تأكيد وعده وارتفاع الوسائط دونه ، وفى الكلام ترغيب للمتولين عنه الى الإقبال إليه ، وتسكين خواطرهم بأنه رحيم بعباده لا يعاجلهم بالعقوبة ، وانه يقبل منهم الإنابة والتوبة ، ومن رحمته لهم إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ فيجازيكم على إشراككم ﴿ لا رَيْبَ فيه ﴾ أى فى اليوم أو فى الجمع ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ اى : يوم القيامة لاختيارهم الكفر ﴿ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ لا يصدقون بأدلة التوحيد ،ولا بالمعاد ،ولا يخافون شرّ ذلك اليوم .(١)

والله جلت قدرته واسع الرحمة والاحسان عظيم المغفرة والامتنان يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها فلا يقنطن عبد من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت .

قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ { الزمر ٥٣ }

الشاهد فى الآية قوله: ﴿ لَا تَقْنَطُوا من رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ يعنى : المغفرة والعفو عن ذوى العصيان.(٢)

سبب النزول : قال السيوطى : أخرج الشيخان عن ابن عباس : أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت : ﴿ والَّذين لا يدْعُون مع اللَّه إلها آخر ﴾ إلى قوله﴿ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾{الفرقان ٦٨: ٧٠} ونزل : ﴿ قُلْ يا عباديَ الَّذينَ أَسْرَفُوا على

(١) راجع تفسير ابن كثير . ٢/ ١١٧ .

وتفسير النسفى:٢/٥.وفتح القدير:٢/١٢٩

(٢) الإتقان ١/ ٢٨٥ . وبصائر ذوى التمييز : ٣/ ٥٧

نفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ الآية

قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر . ولا يصح حمل هذه على غير توبة لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه. اهـ[2]

فمن حلمه الله تعالى تعريفه عبده كرمه جل شأنه في قبول توبته ، ومغفرته له على ظلمه وإساءته ، فهو الذي جاد عليه بأن وفقه للتوبة وألهمه إياها ثم قبلها منه فتاب عليه أولا وآخرا فتوبة العبد محفوفة بتوبة قبلها عليه من الله إذنا وتوفيقا ، وتوبة ثانية منه عليه قبولا ورضا فله الفضل في التوبة والكرم أولا وآخرا لا إله إلا هو .

وقد ورد في السنة المطهرة ما يدل على كثرة رحمته الله تعالى وشمولها . روى البخاري عن [illegible] أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتي سبقت غضبي فهو مكتوب عنده فوق العرش " .[1]

وروى مسلم من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : لما خلق الله الخلق ، كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي

قال النووي : قوله تعالى : إن رحمتي تغلب غضبي وفي رواية سبقت غضبي قال العلماء : غضب الله تعالى ورضاه يرجعان إلى معنى الإرادة فإرادته الإثابة للمطيع ومنفعة العبد تسمى رضا ورحمة ، وإرادته عقاب العاصي وخذلانه تسمى غضبا . وإرادته تعالى صفة له قديمة يريد بها جميع المرادات قالوا : والمراد بالسبق والغلبة هنا كثرة الرحمة وشمولها كما يقال غلب على فلان الكرم والشجاعة إذا كثرا منه اهـ[2]

[illegible]

الوجه الخامس عشر : الرحمة من السعة

قال الراغب : السعة تقال في الأمكنة وفي الحال وفي الفعل كالقدرة والجود ونحو ذلك ، ففي المكان نحو قوله :﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾ (العنكبوت ٥٦ } وفي الحال قوله : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ﴾ (الطلاق ٧ } ...والوُسْعُ : الجدة والطاقة . وقوله تعالي : ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً ﴾ (النساء ١٣٠} وقوله : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ {الأعراف ١٥٦} عبارة عن سعة قدرته وعلمه ورحمته [illegible] اهـ

إن الله تعالى اصطفى هذه الأمة المحمدية وشرفها بأكرم رسول وأكمل شرع وما جعل عليها في جميع أموره جلّ شأنه التى كلفهم بها مشقة وعسر بل دفع عنها كل ذلك ويسره غاية التيسير وسهّله غاية السهولة .

قال عز من قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ{٧٧} وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ { الحج ٧٧: ٧٨ } أى : ما كلفكم ما لا تطيقون وما ألزمكم بشئ يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجا ومخرجا. (٢)

وقد اختلف العلماء فى هذا الحرج الذى رفعه الله فقيل : هو ما أحله الله من النساء مثنى وثلاث ورباع وملك اليمين وقيل:المراد قصر الصلاة والإفطار للمسافر ، والصلاة بالإيماء على من لم يقدر على غيره ، وإسقاط الجهاد عن الأعرج والأعمى والمريض ، واغتفار الخطأ فى تقديم الصيام وتأخيره لاختلاف الأهلة ، وكذا فى الفطر والأضحى . وقيل المعنى : أنه تعالى ما جعل عليهم حرجا بتكليف ما يشق عليهم ، ولكن كلفهم بما يقدرون عليه ، ورفع عنهم التكاليف التى فيها حرج ، فلم يتعبدهم بها كما تعبد بها بنى إسرائيل . وقيل :المراد بذلك أنه جعل لهم من الذنب مخرجاً بفتح باب التوبة وقبول الاستغفار، والتكفير فيما شرع فيه الكفارة والأرش ، أو القصاص فى الجنايات ، وردّ المال أو مثله أو قيمته فى الغصب ونحوه . والظاهر – كما يقول الشوكانى – أن الآية أعم من

(١) المفردات في غريب القرآن : ص [illegible]

(٢) تفسير ابن كثير : ٣/٢٢٣

هذا كله ، فقد حط الله سبحانه ما فيه مشقة من التكاليف عن عباده : إما بإسقاطها من الأصل وعدم التكليف بها كما كلف بها غيرهم ، أو بالتخفيف وتجويز العدول إلى بدل لا مشقة فيه ، أو بمشروعية التخلص من الذنب بالوجه الذى شرعه الله . اهـ (١)

فمن أدلة ما أكرم الله به هذه الأمة أن شرع لها قبول الدية فى القصاص ولم يكن ذلك فى شريعة موسى ﷺ قوله عز من قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ {البقرة ١٧٨ : ١٧٩}.

روى البخاري رحمه الله عن ابن عباس ﷺ أنه قال : " كان فى بنى إسرائيل القصاص ولم يكن فيهم الدية ، فقال الله لهذه الأمة ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ إلى قوله : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ فالعفو أن تقبل الدية فى العمد ﴿ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ يتبع الطالب بالمعروف ، ويؤدى إليه المطلوب بإحسان ﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ مما كتب على من كان قبلكم ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ قتل بعد قبول الدية ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢)

الشاهد قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ يعنى : سعة . (٣)

سبب النزول :

قال السيوطى : أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد ابن جبير قال : " إن حيين من العرب اقتتلوا فى الجاهلية قبل الإسلام بقليل ، وكان بينهم قتل وجراحات حتى قتلوا العبيد والنساء فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا ، فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر فى العدد والأموال ، فحلفوا أن لا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحرُ منهم ، والمرأة منا الرجل منهم فنزل فيهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى ﴾ الآية . اهـ (١)

(١) فتح القدير للشوكانى : ٣/ ٥٨٦

(٢) الدر المنثور : ١/ ١٧٣ وفتح البارى ك التفسير

(٣) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى : ١/ ٢٨٥

والمعنى :

يا أيها الذين آمنوا فرض عليكم أن تقتصوا للقتيل من قاتله ، ولا يبغين بعضكم على بعض ، بل عليكم اعتبار المماثلة والمساواة بين القتلى ، فمن ترك له شئ من القصاص إلى الدية وعفا عنه ولى القتيل فلم يقتص منه وقبل منه الدية فليحسن الطالب فى الطلب من غير إرهاق ولا تعنيف ، وليحسن الدافع فى الأداء من غير مماطلة ولا تسويف ﴿ ذَلِكَ ﴾ الحكم المذكور من العفو وأخذ الدية ﴿ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ فإنه كان فى التوراة القتل لا غير ، وفى الإنجيل العفو بغير بدل بلا غير ، وأبيح لنا القصاص والعفو وأخذ المال بطريق الصلح توسعة وتيسيراً .

والآية تدل على أن صاحب الكبيرة مؤمن للوصف بالإيمان بعد وجود القتل ولبقاء الأخوة الثابتة بالإيمان ولاستحقاق التخفيف والرحمة ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ التخفيف فتجاوز ما شرع له من قتل غير القاتل أو القتل بعد أخذ الدية ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ نوع من العذاب شديد الألم فى الآخرة لأنه ارتكب جريمة بنقضه العهد وغدره بالقاتل بعد أن أعطاه الأمان ، وأخذ منه المال .

ولكم – يا ذوى العقول – فى هذا الحكم الذى شرعه الله لكم حياة لأن الرجل إذا علم أنه يقتل قصاصاً إذا قتل آخر كف عن القتل وانزجر عن التسرع إليه والوقوع فيه،فيكون ذلك بمنزلة الحياة للنفوس الإنسانية . (٢)

ولقد بينت الآية الكريمة على وجازتها حكمة القصاص ، بأسلوب بليغ لا يسامى ، وعبارة لا تحاكى ، بل واشتهر أنها من أبلغ آي القرآن الكريم ، ومع رفضنا المقارنة بين كلام الله سبحانه وتعالى وكلام البشر فيما اشتهر عندهم بالإيجاز من قولهم : (القتل أنفى للقتل) نشير إلى ما انقدح فى أذهان العلماء رحمهم الله تعالي من فروق بين النص والمثل العربى .

يمتاز النص القرآنى : بقلة حروفه ، وفيه النص على المطلوب ، والتنكير للتعظيم والتكثير ، وفيه القتل المشروع ، وتحاشيه التكرار ، وجعله القصاص ظرفاً ، واشتماله على الضدين ، وخلوه من كثرة

(١) لباب النقول : ص٣٢ . والدر المنثور : ١ /١٧٢

(٢) انظر تفسير النسفى : ١/٩١ : ٩٢ . وفتح القدير : ١/ ٢٢٣ وروائع البيان للصابونى : ١/ ١٧٠: ١٧١

...سئون ، وملاءمة الحروف فيه واشتماله على حروف الصفير ، وخلوه من الثقل المنفر ، واشتماله على المساواة ، وخلوه من أفعل التفضيل المبني من المتعدي ، واشتمال النص على الجراح. اهـ(1)

الوجه / السادس عشر : الرحمة بمعنى العصمة

قال الراغب : العصم الإمساك ، والاعتصام الاستمساك ، قال تعالى : ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾(هود ٤٣) أي : لا شئ يعصم منه ... واستعصم استمسك كأنه طلب ما يعتصم به من ركوب الفاحشة ... وعصمة الأنبياء حفظه إياهم أولا بما خصهم به من صفاء الجوهر ، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسمية والنفسية ثم بالنصرة وبتثبيت أقدامهم ، ثم بإنزال السكينة عليهم وبحفظ قلوبهم وبالتوفيق.اهـ(2)

اعلم وفقني الله تعالي وإياك وجميع المسلمين أنه لا شئ يمنع مما جف به القلم بما هو كائن من غرق ونحوه إلا من قدّر الله سبحانه له العصمة والنجاة برحمته .

قال جل شأنه في قصة نوح عليه السلام : ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم ۝ وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ۝ قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾(هود ٤١ : ٤٣)

الشاهد في الآيات الكريمة قوله تعالى : ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾ أي : من قدّر الله له العصمة والنجاة من الغرق برحمته . وهذا التقدير مظهره الوحي بصنع الفلك والإرشاد إلى كيفية ركوبه . (3)

قال الإمام النسفي : قوله تعالى : ﴿ قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾ إلا الراحم وهو الله تعالى ، أو لا عاصم اليوم من الطوفان إلا من رحم الله أي إلا مكان من رحم الله من المؤمنين ، وذلك أنه لما جعل الجبل عاصما من الماء قال له لا يعصمك اليوم معتصم قط من جبل ونحوه سوى

(1) انظر الأصلان في علوم القرآن :ص ٣٢٠ وروح المعاني :٢/٥١ وتفسير أبي السعود ٢ : ١٥١ .

(2) المفردات في غريب القرآن : ص [illegible] (عصم)

(3) التحرير والتنوير المجلد السادس ج ١٢/٧٧ . والإتقان : ١/٢٨٥

معتصم واحد وهو مكان من رحمهم الله ونجاهم يعني السفينة ، أو هو استثناء منقطع كأنه قيل : ولكن من رحمه الله فهو المعصوم . اهـ (1)

والمعنى : يقول تعالى إخبارا عن نوح عليه السلام أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة : ﴿ اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها ﴾ أي : بسم الله يكون جريها على وجه الماء ، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها وجملة ﴿ إن ربي لغفور رحيم ﴾تعليل للأمر بالركوب المقيد بالملابسة لذكر الله تعالى ففي التعليل بالمغفرة والرحمة رمز إلى أن الله وعد بنجاتهم وذلك من غفرانه ورحمته لبقاء هذا الجنس الحيواني وعدم استئصاله بالغرق .

﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال ﴾ جملة معترضة دعا إلى اعتراضها هنا ذكر﴿ مجراها ﴾ إتماما للفائدة وصفا لعظم اليوم وعجيب صنع الله في تيسير نجاتهم.

﴿ونادى نوح ابنه وكان في معزل﴾ الآية.

جملة ﴿ وكان في معزل ﴾ حال من ﴿ ابنه ﴾ . والمعزل : مكان العزلة أي الإنفراد ، أي في معزل عن المؤمنين إما لأنه كان لم يؤمن بنوح عليه السلام فلم يصدق بوقوع الطوفان ، وإما لأنه ارتد فأنكر وقوع الطوفان فكفر بذلك لتكذيبه الرسول .

﴿ قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ رؤوس الجبال ، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق ، فقال له أبوه نوح عليه السلام ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾ أي ليس شئ يعصم اليوم من أمر الله ، وعبر عن الماء أو عن الغرق بأمر الله سبحانه تفخيما لشأنه وتهويلا لأمره .

﴿ وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ فصار أو فكان في علم الله من المغرقين . (2)

إن الله جلت حكمته هو الذي يزكي من يشاء من النفوس فتزكو وتأتي بأنواع الخير والبرّ ويترك تزكية من يشاء منها فتأتي بأنواع الشرّ والخبث .

من عرف حقيقة نفسه وما طبعت عليه : علم أنها منبع كل شرّ ، ومأوى كل سوء ، وأن كل خير فيها من إيمان وعلم وهدى وإنابة وتقوى ففضل من الله تعالى منّ به

(1) تفسير النسفي : ٢/١٨٩

(2) أنظر المصدر السابق ، وتفسير ابن كثير : ٢/ ٤٠٥ : ٤٠٦ والتحرير والتنوير ج ١٢ ٧٤ فما بعدها.

عليها لم يكن منها ، ولذلك كان من دعاء النبى ﷺ : " اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها " . وقال ﷺ لحصين بن المنذر : " قل : اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي " .

وفى خطبة الحاجة : " الحمد لله . نحمده ونستعينه ، ونستهديه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا " .(1)

قال عزّ من قائل فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ { يوسف ٥٠: ٥٣}

الشاهد فى الآيات قوله تعالى : ﴿ إنَّ النفس لأمَّارةٌ بالسُّوء إلا ما رحم ﴾ يعني:العصمة من العصيان.(2)

قوله تعالى:﴿وما أُبرِّئ نفسي﴾ أى لا أنزهها عن السوء ، وهل ذلك من كلام يوسف عليه السلام أم من كلام امرأة العزيز ؟ قولان :

إن كان من كلام يوسف عليه السلام فهو من باب الهضم للنفس ،وعدم التزكية والإعجاب بحالها مع أنه قد علم هو وغيره من الناس أنه برئ وظهر ذلك ظهور الشمس وأقرت به المرأة التى ادعت عليه الباطل ، ونزهته النسوة اللاتي قطعن أيديهن . أو قال ذلك تحديثاً بنعمة الله تعالى وإبرازاً لسره المكنون فى شأن أفعال العباد أى لا أنزهها من حيث هى – هى – ولا أسند هذه الفضيلة إليها بمقتضى طبعها من غير توفيق من الله سبحانه بل إنما ذلك بتوفيقه جل شأنه ورحمته .

وإن كان من كلام امرأة العزيز فهو واقع على الحقيقة ، لأنها قد أقرت بالذنب ، واعترفت بالمراودة وبالافتراء على يوسف .

قال ابن كثير معلقا على هذا القول : وهذا القول هو الأشهر والأقوى والأظهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام ... لأن

(1)انظر مدارج السالكين:١/١١٦ ومفتاح دار السعادة لابن القيم:١/٤٣٥: ٤٣٦

(2) بصائر ذوى التمييز : ٣/ ٥٦ .

سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم ، بل بعد أحضره الملك .اهـ (1)

وقوله : ﴿ إنَّ النَّفسَ لأمَّارةٌ بالسُّوء ﴾ أى إن هذا الجنس من الأنفس البشرية شأنه الأمر بالسوء لميله إلى الشهوات ، وتأثيرها بالطبع ، وصعوبة قهرها ، وكفها عن ذلك ﴿ إلاَّ ما رحمَ ربِّي ﴾

قال ابن عطية : الجمهور على أن الاستثناء منقطع و﴿ مَا ﴾ مصدرية أى لكن رحمة ربى هى التى تصرف عنها السوء على حدّ ما جوز فى قوله سبحانه : ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ۝ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا ﴾{يس ٤٣ : ٤٤ }

وجوز أن يكون استثناء من أعم الأوقات و﴿ ما ﴾ مصدرية ظرفية زمانية أى هى أمارة بالسوءفى كل وقت إلا فى رحمة ربى وعصمته .

وجملة ﴿ إنَّ رَبِّي غَفورٌ رَّحِيمٌ ﴾ تعليل لما قبلها : أى إن من شأنه سبحانه كثرة المغفرة لعباده والرحمة لهم ، والإظهار فى مقام الإضمار مع التعرض لعنوان الربوبية لتربية مبادئ المغفرة والرحمة .(2)

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ { الأعراف : ٤٣ }

اللهم إنا نسألك رحمة من عندك تهدى بها قلوبنا ، وتجمع بها شملنا ، وتلم بها شعثنا ، وترفع بها شاهدنا ، وتحفظ بها غائبنا ، وتزكى بها أعمالنا ، وتلهمنا بها رشدنا ، وتعصمنا بها من كل سوء ، يا أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين ، وصلي الله على سيدنا وعلى آله وصحبه أجمعين .

المؤلف

د/ محمد عبد الرحمن محمد عبدالله

أستاذ التفسير

وعلوم القرآن المساعد

كلية أصول الدين – القاهرة

جامعة الأزهر

(1) تفسير ابن كثير : ٢/ ٤٣٩

(2) انظر روح المعانى : ١٣/ ٢ : ٣ وفتح القدير : ٣/ ٤٣

المراجع

- القرآن الكريم
- الإتقان فى علوم القرآن للإمام السيوطى
- الجامع الصحيح للإمام الترمذي
- الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حبنكة
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم للإمام أبى السعود
- أسباب النزول للواحدى
- أسرار التكرار فى القرآن للكرمانى
- الأصلان فى علوم القرآن للدكتور القيعى
- الاعتقاد والهداية الى سبيل الرشاد للإمام البيهقى
- إغاثة اللهفان للإمام ابن القيم
- الوجوه والنظائر للدامغانى
- إيثار الحق على الخلق لابن الوزير
- بحوث نفسية تربوية لفاروق عبدالسلام
- بصائر ذوى التميز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز ابادي
- التحرير والتنوير لابن عاشور
- تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير
- تفسير الكشاف عن حقائق التأويل للإمام الزمخشري
- تفسير المراغي لمصطفي المراغي
- تفسير النسفي للإمام النسفي
- التفسير الواضح للدكتور حجازي
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن السعدي
- جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي
- حاشية شيخ زادة علي تفسير البيضاوي لمصلح الحنفي
- درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي
- روائع البيان تفسير آيات الأحكام لعلي الصابوني

- روح المعاني للإمام الألوسى
- شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الدمشقي
- شرح صحيح مسلم للإمام النووي
- طريق الدعوة فى ظلال القرآن لأحمد فائز .
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان للإمام النيسابوري
- فتح الباري للإمام ابن حجر
- فتح القدير لمحمد علي الشوكاني
- فقه العبادات لمحمد صالح العثيمين
- لباب النقول في أسباب النزول للإمام السيوطي
- لسان العرب للعلامة ابن منظور
- لمحات فى علوم القرآن واتجاهات التفسير للدكتور لطفي الصباغ
- مدارج السالكين للإمام ابن القيم
- المسند للإمام أحمد
- المعجم الفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبدالباقى
- مفتاح دار السعادة للإمام ابن القيم
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني
- مقاييس اللغة لأحمد بن فارس
- مناهل العرفان في علوم القرآن لعبد العظيم الزرقانى
- نزهة الأعين النواظر فى علم الوجوه والنظائر لابن الجوزى
- النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير
- نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين لمحمد الخضري

* * *